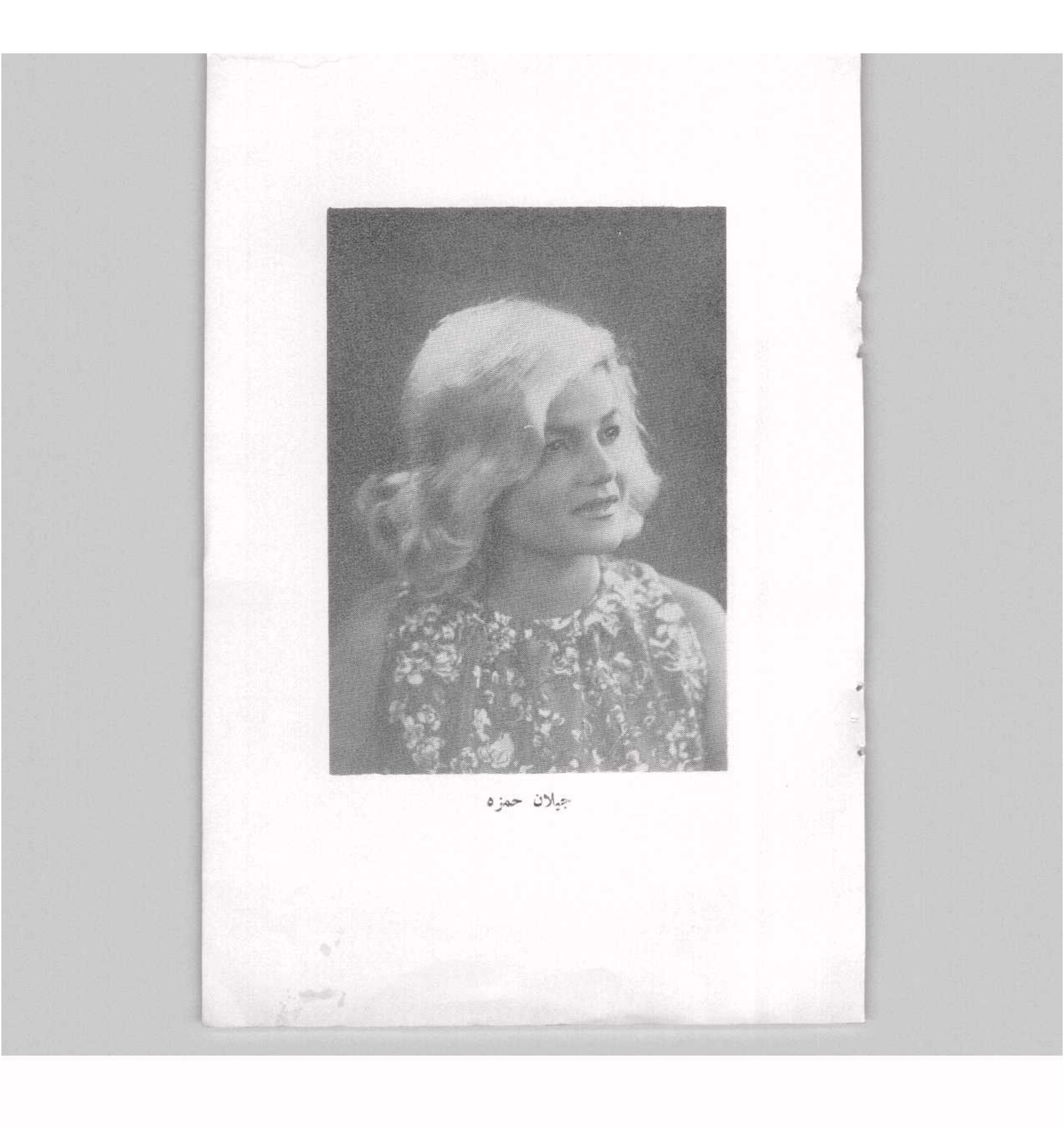
جيلان حمزة

الملم عقدي بغضب

منشورات

دار التعارف - بغداد



جيلان حمزه

الإهداء

من متسلقة سلم الاداب الى من علا قمته عاليا

من عاشقة ازهار البيان الى منبع العبير والبستان اهدي في تواضع : كلماتي المستوحاة من وحي وجداني من ابنة النيل الى اديب الرافدين :

جعفر الخليلي عميد الادب بالعراق لعلي احظى برضاه

القاهرة

جيــلان

- ١ -

الفجر لا يمل من الطلوع .. من طلوعه علي .. الفجر يصر على الشروق علي كل يوم ..

الفجر لا ييأس من أن يأتيني كــل يوم .. يرسل نوره خلف ستائر حجرتي الوردية ..

حقا ستائر الحجرة ورديــــة ، ولون فراشي وردي هو الاخر ! ها قد اتت العصفورة اليومية لاحرك حدقـــة عيني اراقبها وهي تقف في كل ركن من الحجرة ، في الاربعة اركان . الطفل الصغير ، طفل جارتي يصرخ كل يوم مع طلوع الفجر يصرخ كأنه ينتحب علي ... اذن فساعـــة الالم تعلن عن نفسها ..

محال .. محال .. ألمي محال اليوم ... صدقني ان صدري يتمزق ، انا أحس به يتمزق ، عاوني في تناول الدواء .. ارجوك .. الزجاجة قريبة منك .. ناولني اياها .. اياهـــا القريبة منك ..

بهذه الكلمات كنت ارجو زوجي أن يناولني الدواء ، بهذه الانات المتمزقة اسأله أن يعطيني الدواء فما كان منه الا انخرج

من الحجرة واغلق الباب جيدا بيني وبينه ..

احس انني في قاع تابوت له اربعة جدران .. خرج من حجرتنا ومعه ملابسه التي يجيد اختيارها الى حجرةمنفصلةفي نفس دارنا الانيقة .. أحسست بالعرق يتصبب من جسدي المسجى وبأن شيئا آخر قد خرج مع زوجي ...

تناولت الدواء وسكن الالم . فأخذت الف وأدور فيدائرتي الصغيرة مساحة قدمين ذابلتين ..

صمت .. صمت بيني وبينه .. صمت في حجرتي .. صمت في الدار كلها وأنا أتساءل لم كلهذا المحال .. محال .. فأنا أكره الصمت .. الصمت للقبور فقط أو للعدم وحـــده ، الصمت شيء جديد علي .. أحساس دخيل ..

بنظرة رميت الفراغ المحيط بي فلا أسمع الا طنين نفسي لنفسي وذلك الحديث الخالد الذي لا ينتهي .. أتساءل لم هذه العاصفة الخرساء التي بيني وبينه ؟..

خرساء ... عاصفتنـــا دائما خرساء .. يا الهي اي حكمة في تخيره لهذا الوقت وقت الضعف والالم ليحس بثقـــل اذا ما ناولني الدواء ..

مفروغ منه ... مفروغ منه .. انني ما زلت شابة...

دقات متلاحقة كطرقات ناقوس كنيسةتعبت من استجداء الفضيلة من الناس ..... انه زوجي يا لي من تعسة ، لقد عاد ليعتذر عاد ولم تمض علينا ساعات ..

ابصرت صفحة وجهي المتعبـــة في المرآة .. مرآة قلبي وتعطرت ....

ان زوجي في ضيقه الدائم فبادرته بالسؤال ولكنه لـــم يجبني ، بل أمسك يتكىء على سريرنا المهجور .. كانت ساقه

تسبب له ضيقا كبيرا في بعض الاحيان انها ساق خشبية ، فتبا لهذه الساق الخشبية هكذا تصر ساقه في عناد الا ان تضايقه. فناديته سريعا حتى يكف عن النظر الى ساقه .. فلقد كنت دائما وأبدا لا أحتمل أن أراه يطيل التحديق الى تلك الساق اللعينة.. يطيل النظر اليها ساعات ..وساعاتبدونملل.. بدون انقطاع وكأنه يسترجع الاسباب والمسببات لهذه النهاية.

نعم يسترجع عشر سنوات مضت منذ ان احتضنها وهما يهبطان الدرج ، يوم أن قرر ان يتزوجها ويوم أن أخذ بيدها يدربها على القيادة، في هذا اليومبالذاتوهو ما زال يلفذراعه حول خصرها محاولا تدريبها .. في هذه الدقائقوثغر الاسكندرية فرح راقص بشابين في ربيع العمر لسبب ما قرر الثغر أن يضع حدا لضحكات الشابين ، قرر الثغر ان يلفظ الشابين كذئب فرغ لتوه من امتصاص عذراء فانقلبت السيارة في قسوة وفقد الشاب بعضا من نفسه وبعضا من ساقه عند هذا الحدث ويتوقف زوجي دائما .. فقط منذ البداية حتى هذا الحدث كأنه يلقى كل ما بعد هذا اليوم من حياة وأيام وليالي ... ليل عرسنا مثلا بعد هذا اليوم بسبع سنوات .. يوم تعارفنا في بيت صديقي في ضاحية مصر الجديدة .. أعجبني فيه اصراره على الحياة .. لقد كان يأبى دائما أن يساعده أحد في أي عمل في أثناء سهرتنا ... واحاطني برعايته ، لقد كان يحمل الي المقعد اينما سرت في الحديقة ... يجهز لي طبقا من الحلوى. على الرغم من بعد المائدة ، أذكر تماما .. لم أكن قد تخطيت الثامنة عشرة من عمري بعد واصرار هذا الرجل يجذبني اليه .... وتلك النظرة التي تبدو في عينيه .. وشعيرات رأسه السوداء والبيضاء تمنيت ان أتحسسها بأناملي ..

فأنا احب أن أجمع الليل والنهار معا . . .

ولكنه على غير العادة رفع عينيه في سرعة كبيرة من ساقه ودفع الي بورقة وردية ، ورقة في لون ستائري . . . ! وجمودها ثم قال : ان صديقتي زيزي سيعقد قرانها اليوم وهو يود من كل قلبه ان أشاركها فرحتها . .

بأصابعي المخذولة تناولت بطاقة الدعوة فلقد كنت أعرف من ايام هذا الموعد . . . ولكن كيف لي يا عمر ان أخرج وأنا متعبة هكذا ؟؟ . .

فما كان منه الا ان فتح دولاب ملابسي وانتقى لي احداها وبنفسه بكل نفسه أخذ يخلع عني ملابسي ويلبسني ثوبي وأنا شبه مقاومة احاول أن أثنيه . .

ولكنه كان المحال . . . وضاعت محاولاتي الواهنة في خضم عاصفتنا الخرساء . . . وبالفراء لففت كتفي ونزلت مسرعة قبل ان يرى دموعي الغزيرة في عيني . .

وهناك في بيت والدي طلبته فأجابني الخادم ، وسمعت عبر الآلة هرجا ومرجا في منزله لقد دعا اصدقاءه كالعادة ليلهوا سويا . . فطلبت من الخادم ان يعلن سيده اني مريضة بالالتهاب الرئوي منذ أيام . .

في دار ابي . . وداري أنا حجرتي ، وتلك المكتبة الصغيرة مكتبتي . . هنا وهناك فقط كلشيء ملكي ، أشعر هنا ان لي بيتا خاصا ومكتبة تضم اكثر ما احب في هذه الحياة . . . تضم ورقات اتعرف من خلالها احوال الناس ، تؤانسني لا أشعر معها بالملل . . . مكتبتي غاصة بالكتب والقصص ومنظرها يشعرني أنها أمهات لي قد وقفن عاريات الصدور كل واحدة منهن تخفف وحدتي وتمسح دموعي بثديها . . كل منهن تقدم

لي ثديا .. مع مكتبتي لا احس بالوحدة امد يدي اتحسس الثدي الذي اريد اخذه ففيه الدفء والسلوى ..

انا لست وحيدة انا مع ورقاتي ...

في هذه الدار تهالكت راقدة من حيث بدات ....!

لا تقـدم سيدتي بالمرة فاليوم اسوأ من امس ولا ادري لذلك سببا ...

امي تبكي والطبيب يتعجب وانا لا أفهم لماذا يصرون علي أن احيا ؟؟

حقا لماذا يصرون ان احيا .. مرارة تغلف طعم كل شيء حولي ... احساس مخيف بالضيـاع ، جسدي لا يحتضن روحي ، كلاهما بعيد كل البعد عن الاخر .. كلاهما يتعـذب في تلك البوتقة الضيقة التي صنعها زوجي .. أعود بخيالـي الواهن الى الوراء .. الى ايام بعيدة من سنوات .. يوم قررت ان أتزوج عمر والاهل والاصدقاء ملتفون حولي كلهم بأجمعهم يعارضون حتى صديقتي التي رأيت في بيتها هذا الرجل لاول مرة كانت تحملني فقط مسؤولية اختياري .. وكنت مصرة كل الاصرار ، اواجه العم والخال واواجه الاصدقاء بمنطق ولسان لا يعجزان ولا يكفان عن الدفاع والعناد .. وفي اليوم الثالث من زفافي كـان زوجي والله زوجي نفسه ، يلومني ويصفني بالجهل والضياع لاني اخترته ان يكون زوجي من بين خطابـي الكثيرين ..!

أين كلامك يا عمر ؟؟ اين وقوفك بجانبي وانا أواجه الاهل اواجه الدنيا بأسرها الان أنت نفسك تعاتبني لاني قبلت الزواج منك ولا تعاتب نفسك ؟ .. الم يخطر ببالك ان تقف برهة لتسأل نفسك ؟ لماذا لم تعاتبها ؟..

هذا السؤال دائما بلا جواب .. يبدو انه سؤال بلا معنى .. اما انا فدائما انتهي اثر كل محاولة وكل حادث بأن اكره نفسي وأكرهها حقا — لا اطيق النظر الى وجهي الدقيق في المرآة .. هذا الوجه اللعين لم يفلح أن يسعد احدا او حتى أن يسعد نفسه ..

تقاطيعي دقيقة جدا تدل على غباء عظيم .. فأناآه يا انا لست أكثر من امرأة فاشلة مع من أحببت ..

وتعاقبت الايام والليالي في حجرتي يعاودني الطبيبمرات ومرات في اصراره الاعمى بأن أحيا .. وبكت امي كثيرا .. امي التي لا تعرف اليأس او الاستسلام يبدو لي ان اظافر اليأس اخذت تمزق غشاء قلبها المقنع ..

أما انا فأنام أغلب ساعاتي ، ثم اقوم بخطوات خفيفة لاعري صدري واقف امام المرآة اتحسس بأصابعي عظامي البارزة الكثيرة واعقد مقارنة سريعة بين ما كنت عليه من شهور وما انا فيه الان فأخاف .. أخاف هذه العظام الكثيرة .. أخاف عيوني الغائرة وتلك الهالات السوداء فأظل الف وأدور فيدائرتي الصغيرة ... مساحة قدمين ذابلتين ... قدمين فاشلتين ثم اذهب على اطراف اصابعي واغلق باب حجرتي جيدا أوصده تماما ثم امد يدي تحت وسادتي وآخذ أصبع الطلاء .. اصبغ شفتي المرتعشتين وأسبل شعري الطويل لاداري عظامي الكثيرة .. أنظر الى المرآة من جميع الوجوه والزوايا أبتسم .. اصمت .. احاول أن اقهقه .. كل شيء أعمله لاجد في نفسي ما يريح النظر .. فباءت كل محاولاتي بالفشل الذريع ... كل محاولاتي فاشلة ، ومن يومها أحسست ان فشلي مركب .. فلم أزد شيئا الا انني تعمقت في كراهية نفسي ...

العرق يتصبب غزيرا من جسدي كان هذا الجسد يبكي معنى كان فيه وبات بلا معنى ، وبلا غاية ولا هدف ..

بات ذكرى ...

بات عدما ...

وبات العدم لي وحدي أنا ...

- ٢ -

انا في حجرتي وحيدة ، حانت مني التفاتة ... التفاتةبلا هدف .. فأبصرت التلفزيون الشاشة الصغيرة،فأدرت الازرار، النور يشع وانا احاول ان اتابعه ... الدقائق تمر بطيئة ... وعمري هو الاخر يمر بطيئا ... بطيئا ... كما انتهى ما بيني وما بين زوجي هكذا بطيئا هو الاخر ....

الوقت وذاك الذي كان بيننا يمران بملل كأني اثقل على كاهلهما !

كلاهما يلفظني بقسوة وانا لا اتمسك بأحد منهما ...

وفجأة أعلن المذيع باسما عن جولة في موسم الاستـــاذ خالد ... قبل أن اعي كلامه كنت في حيرة من أمري فما زال هناك أناس يبتسمون !!

وبنبرات قوية وابتسامة اوسع من الاولى اعاد المذيـــع قوله السابق ....

اني اعي كلماته ببطء ... خالد الفنان .. خالد ذلـــك الرسام ، وتابعت عيناي صورته وهو يجول بقامته الضخمة يعرض لوحاته ...... يحكي قصة كل منها ..

خالد يستقبلزواره باسما .. خالد يشكر زواره بذكاء..

خالد يبتسم وأنا في جلستي ارد عليه ابتسامته ....

وسرت رجفة دافئة في أوصالي .. بصيص من نور وهاج يلمع في مخيلتي محاولا أن ينير كهف صدري الاسود ..

اتحايل لاقوم الى مرآتي أرتب شعري ..! أغير ردائي.!

وكأني على موعد مع خالد .. ذلك الفنان الكبير الـذي طالما تمنيت وأنا طفلة أن أكون مثله ... لي مثل ماله من ... ومن .... ومن ....

لي لوحات ولوحات كثيرة معلقة تملأ جدران الحياة ... حياتي ... وحياة الاخرين .. دمائي ترتجف متهادية في بدني الهزيل .. وأنا أرتب شعري الطويل .. وهنـاك على مكتب والدي أمسكت بالقلم وكتبت رسالة طويلة الى هذا الفنان .. اشرح له فيها ما انتابني من فرح مفاجىء !.. احكي له قصة الرجفة الدافئة التي تملكتني ! .. وذلك النور الذي لاح فـي ظلمات قلبي .. وانا اتابع العرض .

وختمتها بامضاء انسانة !! وظللت احدق برهة في كلمة انسانة .. وانا اتساءل اعلى الرغم من كراهيتي لنفسي الانني أعتبر نفسي ما زلت انسانة ؟ .. أم أن رؤية خالد تجعلني أشعر بأنني انسانة ؟..

اغلقت خطابي الوردي وبأصابعي الصفراء اعطيتـه للخادمة .. يا الهي .. يا لصفرة أصابعي !.. ومددت يـدي المرتعشة التقط الزجاجة الحمراء أصبغ بها أظافري وكأني .. وكأني على موعد مع خالد ....

معجبة حقا منذ طفولتي بهذا الرجل ......

يعجبني اسلوبه في الحياة .. لفتاته .. سكناتـه .. رسوماته .. حتى صوتـه يعجبني .. يشعرني بالقوة ..

بالحماية .. وشريط سريع يمر في مخيلتي .. أتذكره وأتذكر جلستي على ركبتي والدي أنظر اليه .... أمعن النظر فيه بلا سبب مفهوم ....

ليلتي هادئة ولقد عاودني الطبيب في الصباح الباكر .. وكنت ما زلت في اغفاءتي القصيرة .. ولكنه في هذه المرة كان يسأل عن اسباب هذا التغيير ....

ها ... ها ... ها ... طبيبي يتحسس وجنتي ويدي ثم يميل على والدتي يسألها ان كان زوجي قد حضر بالامس..؟ يا لهذا الطبيب ! عفوا .. عفوا فمحال ان يأتي زوجي حتى لو كان اليوم آخر ايام عمري ..!!

وتجيبه أمي بأنه يكتفي بالسؤال عني كل بضعة أيام... عفوا يا أمي ما رأيتك كاذبة هكذا ...

فأنت لم تقبلي ان تقولي ان زوجي كان يكلف خادمه بأن يسأل عني يوميا ولم يسأل هو بنفسه ولا مرة واحد .

ومن يومها وانا اراقب تلك الشاشة الصغيرة المحببة الى قلبي .... الشاشة الصغيرة جليستي في وحدتي الكبيرة..!! لالتقط من خلالها اخبار خالد .. وتحركاته ... وأسفاره ...

وأوشكت الايام ان تصبح رتيبة كما كانت .. فلم يعد فناني الكبير للظهور على الشاشة مرة اخرى .. الشمس لا تطلع الا مرة واحدة ولكنها مرة كل يوم وهو لم أره منذ أيام وأيام !! ..

لم احيا ولمن ؟.. يا الهي السماء البعيدة العالية سمائي الغاضبة على تصرفي في عناد بالا تجعل للحياة معنى ... أي معنى حتى ولو كان مستمدا من انسان لم أره منذ سنوات منذ كنت صغيرة افضل كثيرا ركبتي والدي ... واختارهما للجلوس

لارقب ضيوفه ومن بينهم الاستاذ خالد ..

وفي ضيقي كنت ارفع جبهتي الى السماء ... سمـــاء الصباح الزرقاء .. وسماء الليل الساهرة الانيقة .. ولا اتصور ان السماء هكذا غاضبة علي في صباحها ومسائها ..

في ليلي الطويل وعيوني التي لا تمل من النظر الى اناقة السماء ...

في احدى الليالي التي كثر فيها تأملي لصديقتي الغاضبة كثر فيها سقوط الشهب .. وكنت في كل مرة يسقط احـــداها اطلب امنية ...

هكذا اعتدنا ونحن صغار ...

سقوط الشهب واناقة السماء ودعائي الدائم اخرج بعضا من الكرب عن نفسي ..

شعري الطويل .. ظلالي السوداء تداري عظام صدري وكتفي وانا اضيع الوقت باللعب في هذه الظلال .. ومع هذا الضيق الذي يتسلل الى صدري تدريجيا قلت لعل سطوري لم تصله .. أو لعلها وصلته وكان جزاؤها سلة المهملات ..

ولاح المرض لي من جديد .. فـــلا تقدم ولا طـــلاء لاظافري .. وكأن الشهب هي الاخرى كانت تسخر مني ..!!

دقائق تمر بطيئة متكاسلة كفانية تصحو مبكرة مرغمـــة على التبكير ..

وفجأة اسمع امي تصيح :

ـــ انت صغيرتي .. صغيرتي الحبيبة .. ما بالك شاحبة ان فنانك المحبوب .. فنانك سيتكلم الليلة بعد فوزه في .... وفي ..... وفي ....

ـــ ماذا واي فوز واي ساعة ..

ـ ايتها الصغيرة بعد دقائق ثلاث .. دقائق ثلاث ..

ـ وعادت تلك الرجفة من جديد ...

عادت الى اوصالي مرة اخرى وجلست وحيدة ارقبه وهو يتكلم بصوته القوي .. صوته الـذي يشعرني بالقوة ويحوطني بالحماية ..

أرقبه وهو يضحك وكأن الدنيا بأسرها تضحك .. كأن الشمس عادت لتسطع من جديد على الكون ..

الشمس سامحت الارض وعادت تداعبها من جديد .. وشمس قلبي أعادت اليه الحياة دفعة واحدة في ختام البرنامج وهو يطلب من السيدة التي ارسلت له خطابا ذيلته بامضاء انسانة ... (يعنيني انا)

يطلب منها ان تتصل به ...

لم اسمع بعدها كلمة .. وشعرت بالحجرة تلف وتدور في سرعة مذهلة في محيط كبير ... محيط الحياة ..

وبأصابعي المطلية بالاحمر القاني أدرت القرص ...

الهاتف يدق في اصرار .. وانا انتظر اسمع دقاتـــه الرتيبة ... أسمعها بصبر ..

ثم جاءني صوت خشن .. فسألته عن الاستاذ خالد .. وبعد ثوان اخرى كان خالد معي .. ولكنه لم يمهلني بل طلب على الفور أن اتصل به عن طريق رقمه المباشر وكان جوابه :

ـ اهلا .. اهلا يا ... يا انسانة .!!

ـ اهلا استاذ .. لست ادري ما الذي دفعني الـى الكتابة و ...!!

ـ سيدتي .. لقد قلت في خطابك انك حينما شاهدتني على الشاشة الصغيرة تعطرت وبدلت ثيابك و .....

— حقا استاذي .. ولا ادري لذلك سببا !..

— انا لا أطلب منـــك تفسيرا .. ولكن هل لي ان أعرف اسمك ؟.. حتى يمكنني الرد عليك في الحلقة القادمة ..

— الرد علي بماذا ؟؟!!

— أشكرك .. احييك .. أتمنى لك شفاء عاجلا !!

— عفوا سيدي .. فما أحب أن يعرف أحــد شيئا عن سطوري لك .. وكذلك اعفني من ذكر اسمي ..

— ولا رقمك حتى اتصل بك ؟..

— ولا هذا ، وآسفة جدا ..

— سيدتي أشكرك .. أشكر لك صراحتك ولا تتأخري في ان تحدثيني كلما سمحت الظروف .

وضعت السماعة وقلبي .. قلبي الضعيف اكاد اسمع دقاته ..

اسمع صرخات نفسي .. صرخة .. صرخة تؤنبني .. تعذبني .. لاني أنهيت الحديث هكذا سريعا .. أسترجع كل كلمة قالها خالد .. اسمع في أذني انفاسه .. كلماتـــه .. استفسارية وهو يحدثني ..

انا سعيدة .. سعيدة .. لاني احدثه كل يوم في الصباح وفي المساء .. أستيقظ على نبرات صوته .. وأنام علـــى أوتارها .. كم أحب ذه الاوتار .. أحب ما تعزفه .. انـــا مرحة .. مرحة انا ..

اغفو وبعض مؤلفاته بجانب سريري .. وصورة لـــه تحت وسادتي ..

صورة بتوقيعه — الى الانسانة التي تعذبني ..

تلك الكتب التي ارسلها الي مع مربيتي حين أرسلت له

زهوري ..

هذه مربيتي لقد حاول معها جاهدا ان يعرف اسمي .. او من اكون ؟؟ او رقم هاتفي فلم تمكنه من ذلك حتى كان يقول لي : انت ومربيتك كأنكما من السماء تهبطـــان لتكلماني ثـــم تصعدان مرة اخرى ..

أنا نسيت زوجي، نسيت هجره .. نسيت تركه حجرتنا وانا اكاد اموت .. نسيت نظراته المتعضة الدائمـــة حتى ومحاولاته في ان استرجعه .. نسيتها .. لم اعد اسأل الى اين يذهب وفي اي مكان من الارض يمضي لياليه .. لم اعـــد اهتم ان اكون الى جانبه في دعوات الاصدقاء والشركات لنا .. لقـــد نسيت .. نسيت كلماته اللاذعة .. نسيت ذمه لمـــلابسي والوانها وحتى عطري ...

فلم يكن يحب في شيئا ....

لقد نسيت انني امرأة مهجورة .. فقـــدت احساسي باهانات زوجي ونقده .. بنظراته التي كـــانت تشعرني اني تافهة .. اني جاهلة .. اني مخطئة حتى في زواجي منه .. لم تعد كلماته لها نفس الطنين الموجع في قلبي حين يقول :

— اذهبي وتزوجي من شاب في مثـــل عمرك لترقصي وتلعبي معه .. اما انا فيلزمني امرأة في العقـــد الرابع من عمرها ..

امرأة وليست طفلة او مدللة ... ان ملابسك تشعرني اني انا المجرد من الملابس .. وشعرك هذا المسدل وكأنـــك صحوت لتوك من مخدعك ..

ما كل هذا ؟؟

حتى عيناك فيهما بريق لا يتفق وامرأة محترمة تصلـــح

لتكون زوجة .. ! لمن ؟

زوجة لي انا عمر ، عمر من تتهافت جميع الشركات على دعوته .!

نعم لقد فقدت احساسي بكلماته .. لم تعد تحرقني كلماتــه .

فلم احاول ان احبس انوثتي خلف ستار من حديد ..؟! وشعري المسدل في طوق من قماش !.. لا ... لا ... لم احاول .. فأنا حتى لم اعد ارى زوجي ..!!

زهوري الحمراء ترسل الى خالد كل يوم مع باقـــات رقيقة كلها امنيات ...

فلقـد كانت امنياتي ......

كل امنياتي له وحده ..

انا احيا حياة جديدة احس فيها ستار الليل على النهار .. وانبثاق النهار من الليل ...

زادي ... كل زادي .. صوتـه وصورته واحيانـا ضحكاته التي ترن في آفاق نفسي ... وهو كل يوم يعرف عني الكثير .. فلقد احس انني زوجة من تلك الاوقات التي احدثه فيها وعرف انني اقرأ كثيرا .. واهوى الرسم ....

عرف انني زوجة مملة ...

عرف ان زوجي يشعر بالضيق مني ومن ملابسي ... وحتى من عطري ...

عرف ان زوجي يدمن الشراب .. وعرف انه يناديني باسم زوجته السابقة الهاربة ..

لقد عرف خالد اشياء .. واشياء كثيرة ..!!

وفي يوم ادرت القرص عن الرقم الذي احبه .. ولم تمض

برهة حتى كان يناديني : —

— أهلا .. أهلا بالانسانة التي تستحل عذابي ..

ثم تغيرت نبرات صوته فجأة .. وأنا لم أنته من ضحكي بعد ليقول لي : —

— اسمعي ايتها المرأة .. لقد مللت هذا الغموض المحيط بشخصيتك .. مللت كل هذا الابهام .. كل هذا السواد .. اليوم .. واليوم فقط .. هو الحد الفاصل بيني وبينك .

خالد يصرخ طالبا اسمي .. وأنا أرجو .. اتوسل .. ان يغض النظر عن معرفة شخصيتي أرجوه .. استعطفه .. ان ينتظر قليلا .. فانا زوجة ولا أريد أن تتخطى علاقاتنا اكثر من اسلاك تلك الآلة المحببة الى نفسي .. الالة الحانية ...

خالد ما زال يتوسل .. بل ويجزم بأنني سأصيبه بكل سوء ما لم يعرف اسمي .. سأصيبه بالشلل .. او الموت حيا .. وانا ما زلت اتوسل لعله يقتنع .. فلقد كنت أخشى على زوجي ..

فأنا زوجة لرجل كما يقول .. رجل له اسمه ومكانته .. أيا كانت هذه المكانة !! ثم يقول :

— ماذا ياسيدتي مرة تخافين زوجك .. ومرة عائلتك .. وثالثة والدتك .. ألابنة شيخ الازهر أنت ؟؟

أنت .. وأنت فقط تستحلين تعذيبي ..

وفجأة أدارت الدنيا لي ظهرها لتعيد الي حالتي الاولى .

أحسست بالغربة والضياع .. فأنا لم أعد أفرق بين الليل والنهار ..

اني قطرة ماء في شارع كله بلل ...

فلقد أغلق الطريق بيني وبينه ...

بردت الالة السوداء الرهيبة .. وتقلصت الاسلاك بين اصابعي ... امزقها ... اسحقهـــا ... واحيانـــا كثيرة اتحسسها ...!!

فلا اسمع شيئا .. ولا يجيب خالد بشيء ..

اني ضعيفة ضائعة .. ادير عيني في المنزل الذي لم اره من مدة ...

ابحث عن شيء .. اي شيء ..

فوقعت عيني على من تصورت أني نسيته ..

زوجي ينظر الي عفوا وانا احملق في شعره الابيـــــض والاسود .. لعلني افرق بين الليل والنهـــار .. ثم أرتمي في صدره باكية وأنظر اليه ...

ابحث عن ذلك الدفء الذي كنت استشعره عبر اسلاك الالـــة ...

اتحسس وجهــه وصـــدره لعلني اطمئن .. اهزه .. ارجوه ان ...

ان ، ماذا ؟ أن يشعرني بوجودي .. بكيانـــي .. ولكن زوجي .. زوجي ينتفض كمن لدغته حية ليبعدني عنهويناديني عفوا بأسم حبيبته الهاربة .. كما لوكنت انا الهاربة .

زوجي يبعدني ليملأ كأسه من جديـــد ، يغرق نفسه ويستغرق في آلامه ..في تلكالامنيةاللانهائية بعودة الهاربة..

اعـــاود الكرة وكلي امل في تغييره .. كلي حقد علـــى نفسي .. حقد على قدري ...

محاولاتي يائسة .. وزوجي يبعدني عنه قائلا :

ـــ مالك يا سيدتي عدت مرة اخرى الى رعونتـــــك السابقة .. تمالكي مشاعرك .. فلقد اعجبتني في تلك الاونة

الاخيرة وقلت انك بدات تدركين تصرفاتك ..

آه يا الهي أكان يعجبه بعدي عنه ؟!يا للأسف لقد كان سعيدا وانا بعيدة عنه ... وعاودني الاحساس الاسود اللئيم .. الاحساس بالفشل المر .. بالهزيمة .. احساس يمزقني ويفتت كياني ..

فأنسللت من جانبه في هدوء .. وعدت الى الآلة الجميلة (التلفون) .. استخرج منها الحياة .. وادرت القرص بالرقم الذي أوحشني كثيرا .. وهناك على الطرف البعيد كان يقول لي :

— الى ان تقرري وقف عذابي فالى اللقاء .. وأغلق طريقي مرة أخرى ..

في مساء اليوم التالي كنت بعيدة عن الفشل .. كان لي موعد مع خالد ..

حائرة .. ولكنها حيرة من نوع جديد .. استعذبها ..

فأنا حقا حائرة امام ذا العدد من الملابس .. أيما أنفع للقائي الاول .. الاسود — الاسود يعطيني عمرا اكبر .. فأنا لا احب ان اشعره مثلما يشعر (عمر) بأني ما زلت صغيرة ..

وهناك في داره .. في معبده .. استقبلني ...

وهناك كذلك في دنيا عينيه .. احسست الدفء ...

احسست بوجودي أنا ...

فأنا لم أعد ضائعة ...

بشر .. بشر نحن ... كلنا خطايا ومن الخطايا .. أما انا .. انا فلقد تخلصت من كل ذنوبي الا ذنبا واحدا .. وهو انني اجلت لقاءنا هذا كل هذا العمر .. لقاء كانت تهفو اليه روحي من دنيا العدم .. لقاء أعاد الي انسانيتي ...

خالد يحب شعري .. خالد نفسه يفكك ذلك الطـوق من القماش ليطلق سراح شعري ..

كان لقاء صامتا .. كلانا يحدق في الاخر مبهورا ...

خالد يحب شعري .. غير ناقم على عيني .. وانا افرق بين الليل والنهار ...

انه يحب الظلال السوداء .. خالد يكره الطوق فيشعر عبر الشاشة الصغيرة ليردد على الملأ .. على الملأ ..

انه يحب الظلال السوداء .. خالد يكره الطوق في شعر النساء . .

وانا اجلس مزغردة سعيدة واحيانا اجعل زوجي يتابع حديثه ويسمع آراءه في بنات جنسنا ويقهقه وكأسه يرتعش بين يديه .. واحيانا ينسكب بين يديه ويقول : —

— هذا الفنان رائع اكثر من رائع .. افضل من ابيك .. ابوك اكاديمي في دراسته للفن .. ولكن هذا الرجل لديه حاسة بالفن — انه يعمل كفنان بالسليقة .. انه .. انه ..

ما اشقاني في هذه الدنيا الواسعة .. يا آلهي ، النبض الراقص في قلبي لا يدوم .. زوجي يطلب ان اسافـر معـه ومع شلته الضائعة لمدة ايام في الاسكندرية .. رضا بك،كان صاحب شركة ولكنه لم يرض أن يساير الزمن ويتنازل عـن ارستقراطيته السابقة .. فشل في حب الاجنبيات الشقراوات وانتهى به المطاف الى ان اصبح يكره الشقراوات والسمراوات معـا ..

بهجت بك ، مقامر متأنق يستخدم آخر قطرة من ذكائه وفي ملامح خلقته يستعمل كل ما فيه يستعمله بذكاء ! .. وذلـك المحامي الذي يلبس مسوح الملائكة .. ويغازلنـي سرا ..

كان أكبر من في الشلة سنا .. وكانت له مكانـــة الاب .. ها .. ها .. ها ..

اذكر مرة انطفـــأ النور فجـــأة في منطقتنا فتحسس يدي بيديه .. وفجأة عاد النور مرة اخرى ولاحظ زوجي كل شيء.. وخبط برجله الخشبة المائدة الخضراء في حقد ظاهر .. ولكن حين لبس بهجت رداءه الملائكي .. ثـــار علي زوجي واتهمني بأنني أريد ان أفرق بينه وبين اصدقائه ..

وفاروق .. ضابط متقاعد يتولى ادارة ثلاث شركات على الاقل .. وكثيرا ما سألت نفسي وأنا أتأمل وجهه الذي يــدل على غباء كبير ! كيف ينجح في عمله ؟ وهو وزوجي لا يخلوان من عيوب ازدواج الشخصية ..

سيد بك عبد ربه .. استطاع ان يكسب ثقة الشلة .. فهو يستحرم شرب الخمر ... ولعب القمار .. ولا تفوتــه ركعة واحدة !!

وكل ما هنالك انه يشرب ما تبقى من الاكواب وهـــو يستغفر ربه وينظر الى ساقي ...

سيد بك عبد ربه .. يشتري خمسة افدنة بخمســة افدنة بمعدل كل ستة اشهر مرة واحدة فقط .

وهو ما زال يستغفر ربه بعمق .. وينظر في هذه المـــرة الى ما فوق ركبتي ..

واخيرا الطالب احمد عبيد .. مهندس ما زال يــدرس للآن ، وكله براءة وطفولة .. يحب مدرسته ولكنه كل يــوم يصدم برأي من الشلة في وجوب سرعة ترك المدرسة .. فهي لا تملك شيئا !!.. وهذا مما لا يساعده على تكوين مستقبل لامع ..

الشلة كلها تناقض ومتناقضات ..!!

ضائعون في الوانهم .. في كلامهم ..

أراهم ضائعين حتى في منطق صداقة بعضهم لبعض ..

ومع هذا الخضم الشره .. فان هناك سحابة وردية من عبير وجدانه الحاني ... سحابة تغلفني .. تطمئنني .. لتشعرني بأنني محبوبة ...

احساس رائع أن اكون محبوبة ..

نفسي معذبة .. لقد جاء موعد الرحيل .. وزوجي يلح علي في الذهاب ..

وأنا آه يا أنا ...

انا ليس لدي حجة قوية للبقاء .. أبقى حيث يشع الجو بانفاسه .. وامامي الآلة الثائرة التلفون تناديني .. تلح علي ان احادثه ...

سافرت بدون ان يعلم خالد ... كأني اخاف ثورته .. اخاف غضبه على نفسه كما حدث في مرات سابقة .. اخافه.. اخشاه وهو يقول :

ــ وتحرمين أصابعي من اللهو في محراب شعرك الداكن ؟؟ ما اظنك يا غاليتي بهذه القسوة ؟ .. ثم يقول :

ــ مها .. أنت سمائي العاصفة .. تأبى الا ان تحرم عابدا من ظلال محرابه الحاني !! وكيف لي في أصابعي ؟ أنا لن الهم طوال غيابك ياغاليتي .. فاني أحس ان يدي عاجزتان طوال بعادك عني !!..

والله .. وحق عينيك .. انا لن أمس لوحة حتى مجيئك سالمة .. خفت من كل ذلك .. فسافرت دون أن يدري .. لاول مرة أصمم .. فأنا أعرف ضعفي .. وأعرف أنني

اعتدت الاستقرار .. اعتدت حياة الزوجية بحلوها ومرها ..
ومع ذلك قررت ان اتمرد على تلك المعاملة .. قررت ان احيا ..
وطالبته بحريتي فهاله مني ما راى وما سمع .. فلقد كنت لاول
مرة اتجرأ واخاطبه هكذا . وفي اي شيء ؟؟

كنت كالامواج تماما .. أصر في عناد بألا اتكسر الا على
صخرة الحرية ......

حريتي .... كرامتي .... فأنا اصر ان احيا .

وزوجي يقهقه كهدير القدر هو الاخر في عناد .. ثم يلف
خصري بذراعيه .. وينفث في اذني عباراته المحفوظة ..

وأنا آبى استجداء الحب .. فأثور واكاد اتقيأ من شفتيه
الغليظتين المتعضتين .. وعينيه الضيقتين اللتين بت أؤمن
انهما قد خلقا لينظرا الي في ضيق وجفاف .. وربما في ندم
يلدغ مشاعري ..

عينيه الضيقتين المحرومتين من الاهداب والحنان ...
وشعره الرمادي الذي احببته في الماضي .. هو الاخر يلدغ
مشاعري ... فيذكرني بالبحر وهو يتقيأ المياه الدنسة بعيدة
عنه في شكل رغوة رمادية ...

وأنا ما زلت في اصراري امامه وامامهم ....

والضائعون لا يعون شيئا .. بعضهم يؤيده .. والاخر
يعارضه ،ولكنهم كلهم يبعثرون نصائحهم وارشاداتهم .. لعلني
أثوب الى رشدي .. الى نفسي .. الى حياتي الزوجية
وصيانتها .. و .. و ... وكلام الناس ..

ولكنه كان المحال .. فمحال أن أستمع الى نصائح هذا
الخضم من البشر ..

كلام الناس .. هذه الكلمة الخالدة .. فالناس وتلك

الشلة لا يهمها أن اتوسل وأرجو وأنا في حالة من الاعيــاء أن يناولني زوجي الدواء .. لا يهمهم أن انكسر كل يوم بلا صوت ولا دموع وأنا أرجوه أن ينسى ولو بعضا من ماضيه ويحيــا بعضا من حاضره ..

لا يهمهم أن انطفىء ببطء فداء كلام الناس .. !!

محال .. محال وزوجي ضائع بين رنة (الفيش)،وكأس حائر .. بين نكتة محترقة يطلقها احد أفراد الشلة وبين هــذه الخمرة التي بينها وبينه غرام لا ينتهي ..

لقد اثرت شجونه الدفينة ، ونبشت بأظافري المسمومة في قبة جروحه القديمة ...

فبكى .. بكى الرجل القاسي .. ورأيت دموعه غزيرة ساخنة تحرق وجنتيه .. بكى حتى علا صوته ...

بكى حتى بكيت أنا الاخرى ... وابتدأ ضعفي يسري في اوصالي .. ذلك الداء الملعون داء التردد والتعود على الحياة الزوجية الرتيبة عاد يراودني .. ولكني سرعان ما افقت حين بكى زوجي مرة اخرى وهو يرثي حظه العاثر .. وحبيبتــه السابقة وأسباب هجرها له .. وهربها منه . وكذلك أنا يامن كان يتصور أنني طفلة غريرة لا أعي من أمر الحياة او من أمر نفسي شيئا .. فكمن نبش قبره بنفسه .. فقلت له :

— الم يكن هذا هو العيب الرئيسي في ؟؟ الم تقــل لي اذهبي وتزوجي شابا مثلك .. لاني اريد امرأة في العقــــد الرابع من عمرها وليست طفلة ! .. فقال :

—عفوا يا مها . .فانت جاهلة لم تتعمقي في نفسي .. فلقد كنت اقول هذا الكلام حتى افهمك ان رحيلــك او بقاءك سيان عندي .. فأنا لا يهمني هجر زوجتي الهاربــــة او

هجرك انت .

وهنا دارت بي الحجرة سريعـــا .. واحسست نفسي ككرة من زجاج تتدحرج بين قدميه .. اذن زوجي يحيـــا معي ويتخيلني ويخاطبني على انني الاخرى الهاربة ... !

وبات كل منا في عالمه الخاص .. انـــا اضيف الــــى فشلي السابق فشلا جديدا .. واتلفت مذعورة في الحجـــرة فلا اسمـــع الا تلك المعركة الخالدة بين البحر ومياهـــه . . ويعلو الصراخ والنزاع فأفتح باب الحجرة متعثرة لاقتحـــم عالمـــــه الخاص ..

فأجده نائما في هدوء ! ..

عدت ادراجي الى القاهـــرة يلفح وجهي هواء رطـــب .. هواء يدغدغ تقاطيع وجهي .... هواء الحب .. فانا ادافع عن نفسي امام نفسي في قضية حبي ..

انا لم اعد متسللة .. لم اعد ابرز لنفسي اي لقـــاء .. اي كلام .. فانا احيا والحق معي ..

الم اتأكد من عدم احساسه بي وبأنه سيان عنده والله رحيلي ام بقائي .. فانا لا امثل الا حدثا معينا .. هو نفســـه يخشى تكراره ..

الانفصال العاطفي .. ها ... ها ... ها

كلمة يرددها كثيرا هذه الايام .. عبارة تقوم عليهـــا احاديث بينه وبين الشلة .. عمر يتكلم عن مساوىء الانفصال العاطفي .. عمر يخلق المجادلات الكثيرة ليتكلم عـــن الهـــوة العاطفيـــة .. يتحمس وهو يخاطب شلته ويرتعش الكـــأس بين اصابعه .. وهو يقوم بدور الواعظ بينهم ..

آه يا الهي لو يحاول ان يفسر هذه الكلمة لنفسه .. ولو

لبرهة واحدة لعرف .. لعرف .. اننا نسبح في بركان من الانفصال العاطفي .....

-٣-

شيء رائع ان اجلسه هكذا امامي ساعات وساعات .. اتفحص كل عضلة في وجهه لأنقلها بفرشاتي ... وهو يقهقه عاليا .. ويقول :

— يا غاليتي الرقيقة اما يرضيك جلوسي هكذا .. لقد اوحشتني هذه المدة .. اوحشني محرابي الاسود العزيز .. اقتربي اميرتي اتحسس ظلالي قليلا ..

— خالد .. انت لا صبر لك .

— لكل شيء زاد .. وانت زادي .. اقتربي يا رقيقة ..

كان مجاملا لكل موقف ..وكلمته هي المناسبة..خالد ماهر فلا تفوته مناسبة الا ويعطيني فيها من روحه . .وانا الاخرى زادي كل زادي بل دمائي التي تجري في عروقي من تلك الكلمات التي تنساب من شفتيه .. وتلك النبرات التي كان يحوطني بها في تقدير واعجاب .. ما شعرت قط بعمري معه .. ما احسست بالفشل في اي لقاء وفي اي موقف ! ..

فانا دائما اميرته المتوجة ...

انا محبوبته الغالية ...

انا شمسه التي لا تغيب . . ومع هذا كانت اعماقي ضجرة امضي الساعات لاكمل صورته وتكون النتيجة انني لا اتقدم وصورته لا تنتهي .. واصبحت لا اطيق هذا الضياع .. ضياع عمري .. احلى ايام عمري بين زوجي وشلته وحبيبي

في مرسمه .. اختلق الاعذار لاخرج .. والفق الاساطير لابرر تأخري حتى ملابسي كنت اجلس الساعات الطويلة لانظفها من بقاع الطلاء قبل ان يراها زوجي وشلته ..

انا ضجرة من كل شيء .. يدي ترتعش تسقط مني الفرشاة ومعها الطلاء في بقع كبيرة على ثوبي الاسود .. بقع حمراء .. وسوداء .. بقع كبيرة وصغيرة .. بقع كثيرة من كل نوع وكل لون .. بقع داكنة . بقع في قلبي ...

انحنيت التقط الفرشاة .. فانحنى خالد وامسك ذراعي بقوة واجلسني .. واقترب بوجهه الذكي من وجهي المرتعش .. وعادت حدقة عينه تحدق في عيني .. عينه فاحصة معاتبة وعيني قلقة هاربة .. وباصبعي تحسست رأسه .. فانا اخاف هذا الرأس .. وهذا الذكاء .. اخاف ذكاءه .. اخاف حدقة عينيه .. فلقد تعودت ان احيا بعيدة .. بعيدة جدا عن اقرب الناس الي .. اما معه فكان ذكاؤه يفضحني ويجردني من كل شيء .. ثم يبدأ في قراءة نفسي حرفا حرفا .. وانا اقف مبهورة متلاحقة الانفاس .. احبه احيانا .. واحسده احيانا اخرى وفي لحظات كثيرة ارهبه ...

تسللت يده الحانية وباصبعه فك الطوق عن شعري.. وانا ما زلت راكعة على الارض من اثر التقاطي الفرشاة ..

كنت مرتعشة .. ضعيفة .. وفي ثوان .. ثوان قليلة. كنت اقص عليه قصة صراعي مع زوجي في طلب الحرية .. تلك الحياة التي كرهتها وهؤلاء الاصدقاء الذين هم في الصباح اناس لهم اعمالهم الناجحة ومراكزهم البراقة ..وفي المساء ليسوا اكثر من ضياع .. بين رنة الفيش والآس .. وضحكة

ضجرة .. ونظرة جافة ..

وقد اضعت انا في خضمها اياما من عمري .. واخـــيرا بيدي المثقلة امسكت الطوق الملم به ظلالي وظلاله السوداء .. فلقد آن لي ان اعود ...

وكنت في مخدعي انقلب حيرى .. واقوم قلقة في الفجر فارتدي ثيابي .. واذهب الى هناك .. فأمسك فرشاتي .. وانا احاول ان اتم عملي .. واعود قبل العاشرة صباحا ..

فزوجي لا يصحو من نومه قبل العاشرة .. اعود لأعد له القهوة واصبها مرات ومرات .. واجري خلفه في الحجرات ليشربها .. فكان منظرها يذكرني بنفسي ..

فأنا والقهوة واحدة .. كلانا يرتشفها ، عمر في ضيق وضجر .. ولكن لا حيلة له .. فالقهوة تساعده علـــى ان يرتدي ثيابه .. وانا .. انا زوجته ! ..

يئست من اتمام لوحتي .. وكان مساء وثوبي عـــاري الظهر والاكمام وانا متدثرة بنسيج يحميني ربما اكثر مـــن عمر ...

يحميني من البرد والعيون التي ترى .. والتـــي لا ترى ! ..

وفي لحظات قررت ان اسدل النسيج علـــى اللوحـــة على ان اعود اليها في وقت آخر .. وتصورت ان عودتـــي قريبة لا تتعدى اياما .. ولكن مرت الاسابيع وانا اذهـــب كل يوم الى هذا المكان ولا اتممها ..

فلقد كنت كحبة لؤلؤ .. انفرطت من عقدها لتتدحـــرج على ارصفة مدينة مزدحمة .. فلقد سافر خالد وزهـــوري ذبلت في بيتي وبيته .. وهدات الالة السوداء (التلفون) ..

انخرست تماما .. وانا اسير ضائعة في الشوارعواذهب الى بيته اجمع حاجاته الصغيرة .. واشياءه الاصغر .. اصغر اشيائه .. اتحسسها .. اتنفسها .. فهي الباقية لــي .. مناديله ورائحة انفاسه ...

ويسخو علي قدري فاعثر على ربطة عنق ملقاة بــين زهور الياسمين التي كان يأتيني بها كل يوم ..

تبتسم لي الدنيا .. والقدر أعلم بما في قلبي .. فأديــر الشريط عفوا .. فأسمع صوته .. ضحكاته .. انفاسه .. احيانا يعاتبني واحيانا يكلمني .. وفي النهاية يحثني ان اتمــم لوحتي ...

وعبر الشاشة الصغيرة كنت اراقب رحلاتــــــه .. استقبالاته في البلاد التي زارها .. وارقب مرة اخرى نظرات النساء له .. نظرات الاجانب .. واقارن بيني وبينهن .. فلقد كان يلذ لي ان ارى هذه الهالة اللامعة البراقة تطوقــه من كل جانب .. اتلذذ ان اعرف من صديقاتي انهن يتابعنه..

احببت المجلات لانه كان مادة لاحاديثها المفضلة .. وانا احافظ على ان يبقى في هذا الاطار احافظ على الرد على الالة السوداء .. صديقتي السوداء بعبارات رقيقة .. واكثر من هذا فانا ارسل للمعجبات كلمات حانية منه ..

عبارات كلها امنيات .. فما حاولت قط ان اخرجه من هذا الاطار .. او الممه كله بــــين جدران قلبي ايا كـــان وسعها ...

احسب الساعات حتى الفجر لاسمع صوتــه عبـــر الاسلاك ... سيكلمني اليوم من امريكا ..

والفجر يغالطني .. يحاورني ... فهو لا يريد ان يحرك

عقرب ساعاته .. وانا اتعبت روحي من انتظار موعده .

كان حديثه كما كان .. قويا يسأل في لهفة عن كهفه الاسود .. وفي اهتمام يحثني ان اعتني بصحتي ...

وانا دبت الحياة في اوصالي .. انبتت الارض الجرداء بعد طول انتظار للفجر ..

أعد .. واعد .. بأصابعي المطلية بالاحمر القاني موعد عودته ...

الفجر يضحك .. ودموعه الغزيرة تقبل وتندي كل شيء . من الارض .. الشجر .. وازهاري في بيته وفي بيتي ...

الفجر يترفق بي .. الفجر يحبني .. فالوقت يعدو بسرعة ...

الوقت ضيق .. وأنا لم انته بعد من تنسيق بيته ..

لقد غيرت له طلاء الجدران ..ووضعت الزنابق البيضاء في كل الاركان .. كتبه ولوحاته أعدت تنسيقها .. وهناك في احد اركان البهو علقت لوحة له أتممتها .. حتى الانوار غيرتها ...

فلقد كان خالد يحب الاضاءة غير المباشرة ... كان يقول لي :

ـ انت بتركك شعرك مسدلا هكذا .. تلقين عليه الضوء بطريق خفي .. يا غاليتي الرقيقة كم يعجبني ليلك الاسود هذا ..

وعلى مكتبه وضعت صورا له وقصاصات الجرائد التي اهتمت بجولته .. وهناك على مقعده الاسود الكبير .. على ذراع هذا المقعد تركت ورقة بيضاء كتب عليها اسماء سيداته

اللائي اتعبن الصديقة السوداء سماعة التلفون بكثـــــرة السؤال .. الالة التي تعبت بيني وبينهن ..

الساعة تقترب من العاشرة والطائرة تصل بعد ساعة تماما ...

وما زال شعري مبتلا .. وقد اعجبت زوجي في هــذه الايام .. لاني كنت مشغولة عنه .. تصرفني عنه كبريائــي وتجديد الدار .. زوجي يصر في عناد ان يجعل سائقه الخاص يوصلني لصديقتي كما زعمت له .. عربته التي اكرههـــا كثيرا .. والتي كانت مثار حسد اقربائه هو .. ! فهذه التي لم يسمح لي قط باستعمالها الا حينما يريد ان يرسلنـــــي الى بيت والدي لذنب اقترفته .. وارسالها لي بمثابـة الاذن والسماح بأن تطأ قدماي الدار من جديد ..

اليوم .. اليوم فقط .. ويا لك من قدر ؟ فاليوم فقـط يقذف بأوامره عبر شفتيه الغليظتين المتعضتين .. بـــأن يوصلني السائق حيثما اريد .. وانا كفأرة مبتلة تــراوغ وحيدة في المصيدة رافضة العربة .. ولكنه اليوم يريد ان يبالغ في مجاملتي .. فلقد اعجبته في تلك الاونة الاخيرة .. وانـا مشغولة عنه ..

وفي منتصف طريقي كنت آخذ سيارة اجرة متوجهة الى المطار .. وهناك جلست انتظر خالدا .. وانا أكره في نفسي هذا الكذب الذي احيا فيه وتلك المحاورة الدائمة بيني وبــين زوجــي ..

أنا اكذب بشراهة .. بنفس الشراهة التي يشرب بهـا زوجي كأسه التي لا تنتهي ..

وفي ركن منزو جلست أرقبه .. أرقب عدســــات

التصوير .. والصحفيون ملتفون حوله في جلبة ... كـــل يتمنى ويحلم ان يظفر منه بشيء عن جولاته الاخيرة ...

لو اتوا الي لاعطيتهم اكثر مما يتوقعون .. ولكنهــم لا يعلمون .. وانا ما زلت ارقبه .. خالد في صحة جيــدة .. خالد نشط ..

خالد يجوب بعينيه المكان باحثا عن شيء .. ربمـــا عني انا ..

وبعد ساعة تقريبا .. اطول ساعة في هذه الدنيا ... دنياي أنا .. أتجه الى عربته حيث كنت جالسة ..

ووقف كل منا مرة اخرى يحدق الى الاخر مبهـــــور الانفاس .. يتلاحق الدق في قلبينا وقال :

— غاليتي الرقيقة .. ها قد عدت .. لقد اوحشتنــي كثيرا .. ما اخبارك ؟ .. تكلمي .. تكلمي عن كل شيء ..

لم أجب .. كنت انعم بسماع اوتار صوته .. وتسللت يدي لتتعلق بأصابعه .. وكنت احس خلاله بنبضات قلبــــه وخفقات روحه المحيطة بي .. وفي لحظات كان يرفع اصابعي ليقبلها ويتحسسها .. وفجأة قال :

— مها .. ان صحتك متعبة .. يدك ترتعـــــش .. وعيناك .. وقد احببت عينيك تحوطهما هالـــــة سوداء .. مها .. مها ..

وبدون رفق .. وبدون ماذا ؟؟ بدون كل شـــــيء .. حكيت له كذبـــــي على زوجـــــي اليوم وقصة العربـــــة والسائق ... و ... و ...

فاقترح ان ينزلني في منتصف الطريق حتى لا يعرضنـــي للوم .. ولكن كمن احرقني كلامه فأحسست انه يعرض علي

ان يقذفني من عربته في وسط جمهرة من الناس ..لتدوسني اقدامهم ..

احسست ان قلبي سلب مني .. القلب الذي لم يكن في امكان اي قدر ان يسلبه مني ..

خطف مني عبر هذه العبارة .. فانا لا اساوي شيئا.. أنا في منعطفات حياته .. أنا في كل ما هو خفي وبعيد عن الانظار ... عن الحياة ...

وهو يخاف المشكلات االى هذا الحد يرهبها ؟؟

العرق يتصبب غزيرا باردا على جسدي الملفوف بقسوة بالثوب الاسود .. وكأنهيمنعني من مقابلة خالد ...

واحس خالد بقلبي وربما احس من تلك الدموع التي انسابت من مسام جسدي المرتعش .. فاعتذر ... ولم يعتذر لي من قبل ...

واحسست الثوب يتسع على جسدي الساكن ..

– ٤ –

بيتي مغلق .. وداري مسدودة في وجهي .. وزوجي يقف خلف الباب ليأمرني بالعودة الى ابي .. ولكن هذه المرة بدون عربته الانيقة ! .. فانا لم يعد لي مكان في بيته .. ولم يتكلم ..

يا له من وقت خانق حرج .. موقف مؤلم ان يغلق في وجهي باب بيتي مهما كان هذا البيت ومهما كان هذا الزوج!.

وفي كلمات تشبه العواء كنت ارجو زوجي ان يفتح لي .. ولقد عرفت انه اكتشف كل شيء ...

العواء يعلو أحيانا .. واحيانا اخرى يضعف الــى ان يشبه المواء .. ولا تفتح الدار .. لا تفتح الدار ..

قدماي التعيستان تقودانني الى الطريق الذي اعرفــه تماما ... الى خالد في معبدنا .. في الدار التي صنعتهـــا بنفسي .. قدماي تقودانني الى هناك ...

فزعة وفزعة جدا .. فالفجر كان ينزف والساعةجاوزت الرابعة ... وفتح خالد بابه قلقا وعلى عتبة داره تحسسته استخرج الطمأنينة من بين شفتيه .. عينيه .. وربما مــن ذكائه الذي اخافه ..

ولكن لا فائدة .. لا فائـــدة .. ولـــذا جبنــت ان اكلمه ... ان اروي لــه ما حــدث واكتفيت بابتسامة بــلا معنى .. محاولة ان اشد بها رباط جأش نفسي الممزقة ..

وهو .. هو .. ذاهل .. لا يفهم شيئا .. وانا لـــم انتظر المصعد فنزلت الدرج كله بقدمي .. وبين الحـــين والاخر .. ارفع وجهي المرتعش اليه وأبتسم امعانا فيتضليله عن الحقيقة التـــي دفعتني الى المجيء اليه في مثل هـــذه الساعة ..

فلقد كنت أقدر تماما مع اي نوع من الرجال اتعامل .. الرجل الذي يحيط به الضوء من كل جهة .. الرجل الفنان .. الرجل الذي خلق ليأمر فيطاع .. فلم يكن علي سهلا ان أحطم تلك القوة الرائعة من الحب التي صنعناها سويا .. وأخبره اول بأول عن اشياء تزعجه .. كنت أخاف ان يتراجع في حبه حين يكتشف كل تلك الاحداث التي تتوالى .. وستتوالى مــن جراء علاقتي به ..

وفي داري انا .. دار والدي كان كعادته .. قابعا فــي

مرسمه الكبير .. يرسم ويرسم ،ورفع الي عينيه الواسعتين الضعيفتين يرحب بي .. انه والدي احب الخلق الي ..

وتسلقت عيناي قامته القصيرة .. واستقرت على يديه الهادئتين .. ان له اصابع عابد متصوف .. فلا عـــروق خضراء .. ولا عظام بارزة تعلن عن نفسها في قسوة كأنهـا تقول لكل من يراها .. :

ـــ انا تلك اليد التي ابدعت كل هذه اللوحات ، انـــا هذه اليد صاحبة هذه اللوحات ..

لا .. والف لا .. ان يد ابي تشعرني بأني لو حاولـت امساكها لامسكت الفضاء ..

يد روحانية .. كأنها يد ملاك اتى لتوه من السمـــاء ليرسم هذه اللوحات ثم يصعد مرة اخرى ..

ابي اجمل حقيقة في هذه الدنيا ...

وتملكني احساس غريب في هذه اللحظات ..

احساس امراة ممزقة .. امراة مطرودة .. ومع هذا .. مع كل هذا تحسد نفسها ..

هكذا انا دائما في مواقف كثيرة .. مواقف شديدة .. احسد نفسي على والدي ..

فلقد كنت في يوم من الايام صغيرة .. يربت والـــدي بيديه على شعري وظهري .. اطعمني بيديه واسكتني بيديه الطيبتين ..

وصحوت من حلمي وانا واقفة امام ابي وهو يقول لي:

ـــ مها .. مالك .. مها اتشعرين بشيء ؟ ..

وكان جوابي انني جئت ابغي بعضا من الراحـــة والهدوء .. ثم انسللت الى حجرتي انا في الطابق العلوي ..

والقيت بحقيبة يدي على السرير .. وتنفست الصعداء ...
انا هنا أحس ان لي بيتا ملكي انا ..

وجاء الرجل الانيق في اليوم التالي .. جاء زوجي ومعه مجموعة كبيرة من الخطابات لخالد .. وسوار كان قد أهداه لي يجمع بين حرفي اسمينا .. ولقد نسيت في غمرة انشغالي ان اغلق صندوق مجوهراتي قبـــل مغادرتي بيته فـــي تلـــك الامسية .. وكان كعادته دائم العبث في ذلك الصندوق بحثا عن اي شيء يصلح له .. !

فألقى على رأسي بأدلة اتهامي .. كمن يتقيأ شيئا اقلق معدته .. وبعد ان هدأ ، واستعاد انفاسه المضطربة القـــى علي بالدروس الرادعة .. واتهمني بكل ما يمكن وبكل ما لا يمكن مطلقا .. !

ولم يكن يضايقني انه عرف شيئا ولم أفكر فيما عســـى ان يتهمني به هو والشلة الضائعة ..بل كل ما همني هـــو احساس والدي .. وتلك الاتهامات الباطلة التي كان يقذفها علي عمر .. فلم احاول ان انفي شيئا مما اتهمني به بل واجهته صراحة وقلت :

— الم تظهر لي في كل مناسبة عدم اقتناعك بحياتنا ..؟
الم تقل لي :

— ابحثي لك عن زوج في مثل عمرك ليجري ويلعب معك.؟
ومن شهور فقط كنت تسحبني من يدي لتقتل في اعماقي نبضا جديدا .. كنت تجرني للطبيب المرة تلو المرة بلا رفق بحجـــة انك لا تحب الاطفال ..

وانت .. انت يا رجل كم قصصت علي مدى المـــك .. وقصصت علي وانت تبكي بحرقة مدى أسفك حين تعمـــدت

زوجتك الهاربة هذا العمل من قبل .. فلم تر مناسبة واحدة الا وتتذكر هذه الحادثة .. وتقص علي القصة من جديد ...

وانا ماذا كنت تريد مني يا عمر ؟ لقد تبعت نصحك وبحثت عن الرجل المناسب فأنا لا انكر شيئا ..

زوجي ينظر الي في دهشة .. ثم يرفع حاجبيه عجبا.. فيذكرني بزورق تائه في عرض البحر ..

ولكن ما فائدة حيرتي .. والى اي طريق يمكن ان تصل ...

لقد فقدت بيتي وزوجي .. وعشت اياما قابعة في حجرتي وحيدة .. منزوية .. اهرب من نظرات والدي المحرقة .. نظراته الصامتة ..

اهرب من رؤية يديه الطاهرتين .. اللتين لم اعد استحق مرورهما على ظلالي وظهري المتعب ..

والدي لا يكلمني .. ولكني احس بالخزي .. احس ان عينيه تسألني :

« يا فتاتي .. الم تجدي من بين رجال العالم اجمع غير خالد .. الم تجدي غير تلميذي ! ؟؟

أيامي سوداء مثل أثوابي تماما .. مثل ظلالي .. وخالد لا يسأل عني .. خالد لا يسأل .. وانا اعذب نفسي ... احللها .. أذيبها .. ثم أسقي بها شجرة اليأس في قلبي ..

مات كل شيء في نفسي .. ماتت الاماني .. خمدت الاحلام .. وذهب كل شيء ..

وتغيرت .. تغيرت كثيرا .. لم تعد تثيرني كلمات زوجي الجارحة .. وعمر يلاحظ هذا التغيير فيصرخ قائلا :

ـ يا لك من امراة .. أنت لا تحاولين حتى الدفاع عن

نفسك من اي طينة خلقت يا امرأة ؟؟

ـــ انا من صنعتها أنت ..

انا من هجرتها أنت ..

انا من كرهتها انت .. انا من لم تحس انتبكياني يوما ما .. أنا من خاصمتها يوم مرضت ، انا لا شيء ..

فيهب صارخا ويخبط برجله الخشبية أرض الحجرة ..

ثم يعود للصراخ مرة اخرى وهـــو يضغط على مخـــارج الالفاظ قائلا :

ـــ انت تستحقين ما كان منى أنت كونت علاقة برجـــل آخـــر ...

ثم يضيف وهو يمعن النظر الى ساقه :

ـــ انت فعلا لا تستحقين الا ما كان مني .. لقد كنـــت متوجسا منك خيفة .. فكنت أصر على معاملتك بهـــــذه الطريقة ...

وفي غمرة كلماته القاسية ونظراته اللانهائية الى ساقه الخشبية وهو يدق بها على الارض ويسترق السمع الى دقاتها في حذر وكأنه يسمع عزف آلة تأتي من أعماقه ....

في خضم كل هذه الانفعـــالات المختلفة نـــاداني باسم الهاربة ....

ناداني باسم زوجته الهاربة ....

حتى في هذا الموقف على قسوته لا يتخلى عنها مطلقا ..

هو هكذا دائما في اي انفعال لا أزيد عن كوني حدثا في حياتـــه يخاف تكراره ...

ثم تركت له الدار نهائيا خالية من كل أثر لحـــاجيـــاتي فيها ...

احساس مخيف من يوم ان تركت بيت زوجي .... وبقايا احساس اسود لئيم يتلوى في اعماقي ... احساس بالخوف من خالد كان يزداد يوما بعد يوم .... فأنا لم أجرؤ أن أواجهه بما حدث لي ...

أنا .. آه يا انا .. انا اجبن من مواجهة اي تهرب من خالد ..

كنت أود ان احيا عبر احلامي التي صنعتها بنفسي .. فلم يدر مما حدث شيئا ..

هو غارق في اعماله في مؤتمراته .. في تلك الهالة المضيئة حوله ... الهالة التي تحجبه عن عيني وتوسع الهوة بين وقفتي هكذا كالذبيحة المحتضرة وبين الالاف من أصدقائه .. من مريديه .. من تابعيه ..

التردد كلمة لها آلاف الابعاد والمعاني ... كلمة لها معناها العلمي في كتب المدرسة ... ها .. ها .. ها .

التردد وسعة الاهتزازة وارتباط كل منهما ببعض ارتباطا وثيقا .. ولكن انا في غربتي هذه .. في ضيقي الدائم أحس أني خلقت للكلمات معاني جديدة .. تتعارض كلية مع ما قاله اساتذة الطبيعة السابقون ..

نعم احس ان كلا من التردد وسعة الاهتزازة لا ارتباط بينهما ..

فأنني اتردد مئات المرات وبسرعة فائقة ومع ذلك فسعة اهتزازي واسعة جدا ..

وفي كل مرة تتسع الى ان اصل الى بيته لالف وأدور هكذا حوله كقطة تبحث عن ذلك الذي انتزع منها صغارها قبل ان تلعقهم وتنظفهم من آثار ولادتهم الحديثة ...

ثم اعود الى حجرتي وحيدة ..
قلبي يبكي ...
ظلالي تبكي ....
احس ان داخلي يموء .. اغوار نفسي تموء .. ربما أشد مواء من تلك القطة التي سلبت اولادها ...

فلا نتيجة من سرعة التردد وكثرته ...

والالة الصديقة السوداء .. ترن في اصرار .. وانـا انكر وجودي من كل الناس ..

وطلبتني احدى الصديقات اكثر من مرة في كل دقيقة.. وبين كل دقيقة ودقيقة تطلبني .. وسمعتها تعاتبني في قسوة لا تريد أن تسمع مني دفاعا ..

فلا دفـاع لي .. ولا داعي لان أتكلم .. لا داعي لاي شيء !! ..

لان ... لان زوجي عمر مريض .. مريض جدا ..

ثم توالت الصديقةالسوداء الحائرة(سماعة التلفون)على بالدق لتوصلني بكل من رضا بك .. من زهد في الشقراوات والسمراوات معا ..وبهجت ذلك الكهل المقامر الانيق .. وهو يحاول جاهدا مع أحبال صوتـه ونبراته .. أن يأخـذ دور الواعظ .. وينصحني برؤية عمر .. ولا ينسى كالعـادة أن يعرض خدماته بالحضور وتوصيلي الى هناك ...

فاروق بك .. بشخصيته المزدوجـة .. لا أدري كيف يتولى ادارة كل هذا العدد من الشركـات .. فاروق بـك وزوجي .. كلاهما يجعلني اتساءل كثيرا واقرأ كثيرا في علـم النفس .. فكلاهما يتمتـع بشخصية ناجحة الى حـد ما في اعماله .. الى أن يأتي المساء فأرى في كليهمـا السقوط ...

والضياع ... و ... و .

ولم ينس سيد بك عبد ربه أن يستغفر ربه مئات المرات قبل ان يخاطبني ويسمعني عبر الاسلاك .. صوت المسبحة التي يسبح بها .. ويتخيل ساقي ..!

أما الطالب أحمد عبيد .. فقد تزوج من فتاته وجرفـه تيار الحياة .. ولم يكلمني ..

وأنا بجوار سريره ومجموعة من الاطباء تتكلـم ... تتهامس .. ثم تلقي بالنتائج هكذا دفعة واحدة في وجهي ... تلقي بالانباء في وجهي بلا رحمة ..

نسيت كل شيء ... أصبحت كأناء فارغ تبخر ما به في ثوان من جراء لهيب الانباء المريرة ..

نسيت كل شيء .. كل شيء..

نسيت حقدي .. المي ..

وجثوت بجوار سريره .. بجوار قدميه ..

ابكي ... واتحسس ساقه مرة .. ثم اتحسس الساق الخشبية مرة اخرى ...

تتساقط دموعي كبيرة ساخنة من عيني ...

كياني كله يبكي ....

ظلالي السوداء تبكي ...

ارفع وجهي لارى العيون .. عيون أقاربه تبحلق ... تحدق الي ... تحرقني ... تلسعني باستفسارتها ..

كلهـم يقدمون خـدماتهم ... كلهم يقسم ان يجلس بجواري ....

الى ان حل المساء .. وابتدا الجمع ينفض من حوله .. كل واحدة منهن تعود الى بيتها .

احداهن تخشى زوجها المهندس !

والاخرى تغار على زوجها .. فتذهب لتضبط دخوله عتبة البيت .. والثالثة .. والرابعة ..

الاولى لا تنسى كالعادة ان تحكي امام عمر .. وامامي قصة خطيبها السابق الذي صفعته على وجهه ايام شبابها .. هذه المرأة لا تكل من ان تروي في كل مكان .. وفي كل زمان قصة ذلك الخطيب البائس .. لتدلل على رجاحة عقلها الذي تعتز به تماما ...

والثانية .. انها امرأة لا يعرف قلبها الحقد ... ولا تتعامل معه مطلقا .. لست ادري لماذا مع نصاعة قلبها هذه لا تحاول ان تصفح عن تلك الثواني التي يتأخر فيهازوجها.. وهو يطأ بقدميه عتبة الدار محتضنا لها بعض الفاكهة بيد .. واليد الاخرى تحتضن بشدة واخلاص زجاجة دواء لوالدتها ...

كلهن مثل الحداة تماما .. في الصباح تنهش في شيء.. في اي شيء .. ربما في جسدي انا المتعب ... وفي المساء تعود الى وكرها لتحتمي وتتزود بالزاد الكثير الذي يعينها في اليوم التالي لتبدأ نشاطها من جديد ..

فهن في المساء يستجدين ازواجهن ... وفي الصباح ينفثن سموم الفشل في جسدي انا ...

كان الموقف حرجا جدا .. ولكني عدت الى بيته بدافع من حياتنا السابقة ..

فليس امامي الا ان اعود له .... !

ما تصورت قط ان نبأ مرضه يزلزل كياني وانا احاول جاهدة ان اتناسى خالدا في خضم معركتنا ضد المرض ..

الحرارة .. الحرارة ... هذه الكلمة تحاورني .. تنتقم مني .. ترتفع وتنخفض.. ولا ترتفع .. ولا تنخفض.. هذه الكلمة تشقيني وتسعدني .. تحبسني في دائرتها اللانهائية ...

يا لضعفنا .. كلنا حيارى امام بضعة أحرف تكون كلمة « حرارة » .. والحرارة تعرف ماهيتها .. فتحيرناوتشتتنا..

واللحظات الحرجة تجمعنا .. تقوي رباطنا ..تضاعف سمكه .. حتى يخيل الي انه لا يمكن ان يتمزق مرة اخرى..

عمر راقد في سريره .. يبتسم لي .. كأنه يتعرف علي لاول مرة .. يرقبني بعينيه اللتين خلقتا لترقباني في صمت وهدوء ..

عافت نفسه الشراب .. فانا كما يقول كأسه التي لا تنتهي ...

انام بجواره .. احس انفاسه المضطربة تلفح رقبتي.. كأنه طفل عثر على ثدي أمه ولتوه فقط ..

لحظاتنا المحتضرة تتكاثر .. كلها ايام وتجري له الجراحة .. وبعدها يستطيع عمر ان ينام .. واحس بانفاسه الدافئة تلفح رقبتي .. ولكن في هذه المرة كانت انفاسا هادئة مستقرة ..

وانسلخنا من دارنا .. وطننا الى الخارج لاجراء جراحته .. كنت اسمع قلبي يسألني في شيء من الاصرار عن خالد .. خالد ..

نار .. نار تحرقني .. نار في قلبي .. في عقلي .. فانا لا اطلب شيئا الا عودة عمر سالما .. ولا اريد خالدا .. ان لخالد كل شيء ...

اما عمر فمسكين هرب منه كل شيء .. كمحاولة لرجل ان يمتلك قلب غانية ... عمر مسكين .. هذا الرجل .. فأنا كأسه التي لا تنتهي .

ومع ذلك السائل الذي صبوه في ذراعه .. نـــــام .. نام .. لقد نام وذهب بعيدا .. بعيدا عني .

ساعاتي سوداء احتضن فيها قرآني بين يدي .. اقرا واقرا .. عيني تقرأ .. قلبي يقرأ ..

ثم أجثو على ركبتي .. اتضرع واطلب من الله ان يعيد الى عمر صحته .

مفزع .. مفزع منظره .. مفزع ان اراه هكذا ممـــددا كجثة بلا صاحب .. ممددا عاريا من كل شيء ..

وثوبي احمر يعكس الضوء في عينيه .. فيتابع بلا وعي ردائي .. ثم أشد من شعري احدى المشابك لامس قدمه .. فلا يتحرك .. أثقل يدي عليه .. ولكنه كان بلا حراك ..

فخرجت مذعورة أنادي الطبيب .. لاعيد امامـــــــه حركتي .. وهو لا يجيبني في رقدته .. واتمتم بعبارات أحاول بها ان افهمه ان زوجي لا يتحرك .. ولا يحس .. فهل يـــا ترى ماذا ؟ أيعقل ان يكون قد .... ؟؟

كل ما اذكره انه اخرج من جيبه قرصا وقدمه لـــــي لاشربه .. ثم سحبني من يدي في رفق وهو يلقي عليه نظـــرة فاحصة ..

وفي مكتبه الشديد البياض .. كنت اكثر هدوءا من اثـــر القرص .. وافهمني انني في حاجة الى الراحة الطويلة ..

لانني بدون ان ادري ..كنت اتحسس قدمه الخشبية .. وكان من الطبيعي الا يجيبني ..

احسست الحجرة البيضاء تدور في سرعة فائقـــة ...
وايقنت ان الارهاق اخذ مني كل مأخذ ...

يوم ثالث بعد الجراحة .. وعمر يعي تدريجيـــا .. يناديني .. يتحسس يدي .. يقسم انه يحبني ! ..

وبعد ايام .. كنت اتجول معه في الشوارع والازقة.. شوارع غربتنا .. واضغط على كفه القوية .. استخرج منها الطمأنينة ...

فلقد شفي عمر .. وعاد قويـــا معافى .. عاد كمـــا كان ..

وعدت انا .. افرق بين الليل والنهار .. من خــــلال نظراتي المتعبة .. في شعره الاسود والابيض ولكن ...

اللحظات المرتعشة جمعتنا ...

واللحظات السعيدة فرقتنا ...

واكثر من ابتسامة جعلتني أحس بغربتي ووحدتي ...

وضحكات كثيرة له جعلتني لا افرق بين الليلوالنهار وانا اتأمل نفس شعره الاسود والابيض ...

لأن .. لان عمر عاد ليناديني باسم هاربته من جديد ..

وكانت لطمة عربيدة جعلتني أكـــاد اترنح من فــــرط قسوتها .. ان اكتشف انه كما كان دائما لا يعي من انا ...

فاصبحت كعقد جمعه بيده .. ثم عاد وقطع خيطه من جديد ليتركه هكذا مبعثرا هنا وهناك ...

وصممت ان الملم حباتي بنفسي .. حبات عقدي انا .. عقدي المرفوض ..

وفي وطننا .. في داره .. التقت الشلة الضائعة مـــن جديد .. فاروق بك .. والدموع تترقرق في عينيه .. يحتضن

زوجي في حنان بالغ ..

وفي آخر الليل .. يسأله بسخف :

— هل حقا سافرت للخارج ام لا ؟؟؟

فهو كما هو معروف لدي مزدوج الشخصية .. لـــه نجاح الى حد ما في الصباح في اثناء عمله .. وفي المساء هكذا لا يدري من أمر نفسه شيئا .. او من أمر عمله شيئا ..

واعود انا لاتساءل مـــن جديد .. كيف يؤدي هـــذا الرجل عمله ؟؟

بهجت بك .. والابتسامة تملأ وجهه الانيق .. ويداه ترتعشان .. وهو يرفعهما الى السماء .. يشكر الله علـــى سلامة وصول زوجي .. ويعرض علي ان يوصلني بعربتـــه الى اي مكان في الدنيا ! ..

أضحك .. واضحك .. اضحك وانا ارى بهجـــت بك يشحذ كل اناقته في آن واحد .. وهو يعرض علي عربته .. بهجت بك يستنزف اناقته باستمرار ...

عمر آه يا عمر .. يا لك من رجل يجيد تصديق الناس الا انا ...

أنقل عيني بين تقاطيع وجهه .. أحدق الى عينيه لارى منتهى الرضا والسعادة ... أراه سعيدا .. وهو يـــرى اصدقاءه ملتفين حوله ..!

ويبدأ ليلنا الطويل مع هذه النخبة من الرجالات مـــن جديد !

واستأذن منهم لادخل حجرتي ..

احاول ان انام ...

او ربما أطلي اظافري بالاحمر القاني ...

او ابتلع اقراصا مهدئة .. فأنا احاول ان انام ...

آه يا ليتني لو استطيع ان استنزف النوم كما يستنزف بهجت اناقته ..

ولا ادري لاي سبب عادت صورة بهجت تملأ مخيلتي وتستحوذ على تفكيري واتساءل نفس السؤال الملح :

ــ كيف يؤدي هؤلاء الرجال اعمالهم .. والى اي حد استوعب فكرة ازدواج الشخصية ..

ثم فجاة برزت في مخيلتي صورة زوجي وهو ينتحي جانبا ببهجت بك واعدا اياه ان يكلمه فيما بعد ..

افكار .. وافكار بلا هدف معين تؤرق مضجعي ... حجرتي الوردية تفتح على شرفة كبيرة .. وفجأةاسمع صوت أقدام اعرفها جيدا .. فهي لزوجي وبهجت ...

يا آلهي .. حتى دقات وقع اقدام بهجت انيقة كعادته في كل شيء ...

اصواتهما تتهامس .. ثم تعلو وتنخفض .. وانا تسري في اعماقي رغبة كبيرة لاستراق السمع ولم لا ؟؟

ربما كان دافعي الضجر او الفراغ او عدم وجود زجاجة طلاء لاصابعي ... ولكني على اي حال اريد ان استرق السمع اليوم ..

ها .. ها .. ها .. لا بد ان عمر يكلمه عن هاربته .. زوجته السابقة .. ولكن لماذا لا استرق السمع ؟ ..

وشعرت مرة اخرى بحجرتي الوردية تتهاوى فوق راسي بقسوة .. جدرانها تضيق علي ...

جدران تابوتي الوردية اللون في لون دم عذراء .. في ثورة حيوان وحش ...

وملأني مرة اخرى احساس بأني عقد انفرط من صاحبه في زحام طريق .. فدائما وابدا نصيبه نعال الاقدام ...

الثقيل منها .. والخفيف .. ولكنها كلها نعال ..

لقد كان عمر كعادته يروي تفاصيل علاقتنا الزوجية لبهجت .. الرجل الكهل المجرب .. هكذا كانت عادته ..

ولكنه يا آلهي .. لكنه في هذه المرة .. اضاف انه يشعر بالضيق مني كزوجة .. وانه يعطيني حقي فقط مكرها .. لانه حقي ..

واجفلت من وقع الكلمات المحرقة .. فأتكأت بظهري على زجاج الشرفة .. واحدثت بعضا من الضوضاء ..

عمر في شهوة الكلام مع بهجت .. كأمراة تعترف امام القس .. لم يشعر بي مطلقا .. ولكني لمحت بهجت يبتسم في خبث ..

وتواردت الافكار كسيل من الدمار في قاع ذاكرتي ...

وبدأت افسر كثيرا من تعليقات وتلميحات بهجت السابقة ..

يا آلهي .. هكذا بسهولة ويسر يتباحث في ادق امورنا مع اصدقائه ..

هكذا هو دائما .. ولكني لم اكن اتصور ان يصل الى هذا الحد في الافتراء على حقيقة علاقاتنا ! ..

كان عمر كمن يكون مكلفا امام اصدقائه بتقديم التبريرات الكافية بزواجه مني رغم اعلانه وما يبديه من سخط ونفور دائم ..

طنين في اذني .. وتابوتي الوردي يخنق انفاسي الثائرة ...

فصممت ان ألملم حبات عقدي بغضب .. بكل ما فـــي من غضب ..

بكل ما في قلبي من ضيق ..

وفي بطء وتوجس كنت فلالها اسمع دقات قلبي بأذني..
اسمع نبضي يعربد عاليا مدمـــرا .. يقتلع وعودي مـــن نفسي ..

وفي بطء وتوجس كنت خلالها اسمع دقات قلبي بأذني.. اتعرف عليها من جديد ..

لقد عدت اخاطب خالدا ..

كان صوته باردا .. كأنه في حلم أيقظته منه ..

كان كمن نسي حبي وتناساني ..

فأعدت الكرة في الصباح الباكر .. واحسست ان الفجر ما زال ينزف في غزارة حين استأذن مني لمشاغله ...

خالد ينصحني .. يرجوني .. ان اهتم برسوماتي .. وقراءاتي ..

خالد يحثني بصدق ان اكتب او ارسم .. ان افعل اي شيء الا ان ...

جريت الى ملاذي .. لوحاتي المزوية .. ازحت الستار عن بعضها .. وامسكت الفرشاة .. فلم استطع ان ازيـد الا بقعا ..

بقعا كثيرة .. حمراء .. وصفراء ..

بقعا سوداء ..

بقعا في لون اعماقي .. اغوار اعماقي ..

وعمر لا يدري من اعماقي شيئا .. ويملأ عينيـــه الضيقتين المحرومتين من الاهداب والحنان نظرة كبريـــاء

وتفضل .. كمن يقول لي :

— اشكري الله انني ابقيتك تحملين اسمي .. وغفرت لك رعونتك .. فلا تطالبي بشيء ..

ولم يكن يعلم انني من زمن بعيد عريته في لوحاتي ... وفي عقلي .. وجعلته مجردا امام عيني ..

انني من زمن بعيد اكتشفت انه يخاف تكرار حدث قد وقع .. وانه يحيا لحظة بلحظة خلف ظل هارب من بعيد ..

وخالد يثيرني ببروده .. يثيرني باعتذاراته المستمرة.. اعتذاراته التي لا تنتهي ..

اما انا فأزداد تعلقا به .. ارى فيه املي .. منتهى املي ...

ارى فيه النجاح .. ارى فيه النصر .. احسه في كل لحظة من ايامي .. احيا منه وله ..

صدري مشحون بعديد من الانفعالات .. ولكني خرساء والله خرساء .. تائهة في خضم امواج الغضب والحيرة التي افقدتني قدرتي على التعبير ...

فقررت ان اذهب اليه .. نعم اليه ..

وهناك في داره .. الدار التي صنعتها بكياني .. الدار التي جعلت كل شيء فيها ينطق بما في قلبينا ..

وهناك كان بيننا عتاب ..

أنا أعاتبه لانه لم يفكك الطوق عن شعري ..

وهو يعتذر في رقة .. ويبكي بين يدي ..

هذا الجسد الكبير .. وذلك الراس الذي اخاف ذكاءه .. كل هذا يبكي ويعاتبني على انني لم اخبره بما يحدث مع زوجي أول بأول .. لقد تصور أنني اتعمد ابعاده عن

حقيقة مشكلاتي ..

كان يستكثر علي هذه التضحية ... و ...

خالد يجلسني برفق في صدر الاريكة الحمراء ... ثـم يغيب لحظات ليعود وفي يده كومة من اعقاد الياسمين التـي كان يحضرها لي كل يوم .. وانا لا آتي لآخذها ..

يا آلهي .. كان يفكر في .. ولكني بقلقي السابق كنت اعكسه عليه ..

فكان كلانا يبتعد عن الاخر ..بلا سبب .. وبلا رفق..

ايام اخرى .. وفي عين زوجي نفس النظرة المتعالية.. وتلك الطريقة المؤسفة التي كان يلذ له بها ان يلمح ويعاتبني بطريقة خفية بين اصدقائه.. بل ويدفعني دفعا ان ابدي رأيي في لوحات لخالد مصورة في احدى الجرائد ..

حياتي غير محتملة .. اكثر من قبل .. ايامي تضيع بين نظراته المتعالية .. ونظراته التائهة بحثا عن الهاربـة .. ونظرات كثيرة طويلة الى ساقه اللعينة ..

احداثه الكثيرة تستنزف روحه القلقة .. ويبقى لـي دائما العدم ...

وقررت مرة اخرى ان اتركه .. فانا لا اقبل ان اكـون بديلة غير مرضي عنها ..

وهو يا له من رجل بات النظر اليه يملأ نفسي مرارة.. باتت عيناه الضيقتان لا تدلان الا على الضياع .. علـى الحرمان .. على الفشل ..

انه معذب بصدق ..

انه مثلي تماما ...

- ٥ -

الحب .. الحب ..

لقد علمني الحب الكثير .. علمني الشفقة .. علمني الرفق بكل الناس .. فلم أعد ساخطة .. لم اعد اتاثر حين يناديني باسم حبيبته عفوا ..

كبر قلبي .. واتسعت جنباته .. فلم تعد كلمة صغيرة او كبيرة تحفر بالسخط فيه .. اصبحت مرحة غفورة .. فلم اعد اقبل اعتذاراته بعد اي سهم مسموم يخرق سمعي ... كنت اشفق عليه ..

على حبه الضائع ..

على قلبه الخاوي ! ..

وبدأت اناقشه في مشكلته .. اناقشه في رفق وحنان.. وبتحفظ شديد فتح لي قلبه الموصد .. ومع حكاياته عنها .. كنت احس بآلامه تتبخر بلا ضجيج ...

خالد يشجعني على مشاركة عمر .. يحثني ان اترفق معهوان احزن لحزنه .. وافرح لفرحه ! ..

كنت احيانا أطلبلزوجي حبيبته الهاربة وهو بجواري.. يسمع صوت والدتها وهي تقول لي :

ـــ انها خارج القطر ... !

ثم يحثني ان اسأل عن موعد عودتها ؟ .. ويحثني مرة اخرى ان اسأل عن كذا و .. و .. و .. وانا بالطبع منتحلة احدى شخصيات صديقاتها اللاتي يعرفن عمر جيدا .

كان على اثر كل مكالمة يبتهج ويتهلل كطفل كبير .يضحك مقهقها وهو يخبط بساقه الخشبية ارض الحجرة ..

كنت اشاركه ضحكه .. وكأني انا الاخرى اكفر عـــن كلامي مع خالد ..

الشلة تمل الحب والكلام عنه .. الكل ينصحه ان يكف عن ذكر هاربته امامي .. وعمر لا يسمع لهم كلامـــــا ! .. ولا يراهم .. !

غارق في ماضيه .. متطلع الى غد احسن .. فربمـــا يستطيع ان يراها .. وانا احيا بكياني .. كياني الضعيـــف مع مأساته .. !

أواسيه بلا امل في نسيان ! ..

ومع كل هذا كان في بعض الاحيان .. ينتفض كمـــــن لدغته حية ليصيح في وجهي :

ـــ يا ايتها المرأة .. انت جاهلة .. صغيرة .. لـــم تنضجي بعد .. فالاجدر بك .. ان تذهبي وتتزوجي من هـــو في مثل سنك ..

فأصرخ أنا الاخرى .. فكم كنت اكره كلمة صغيرة ... جاهلة .. صغيرة على كل شيء .. أصرخ لأقسم له ان من سأتزوجه لا بد ان يكون اكبر منه مركزا وسنا ! ..

فيضحك هذا الرجل ليقول لي :

ـــ انت بذلك تتحدين نفسك ! ..

انا دائما اصغر من ان اصلح حتى مواسية .. وانـــا ما زلت في اصراري أتحين الوقت المناسب للرحيل ..

وخالد يحبني ويريدني .. ولكنه شديد الاشفاق علـــى عمر ! .. يحيا مأساته ساعة بساعة .. يفرح لفرحـــه .. ويحار معه في حيرته .. !

لقد اورثنا عمر الضيق .. فصرنا مثله .. لا شـــيء

يرضينا .. !

وتدريجيا عاد خالد لاعتذاراته المتكررة .. !

وكان يحدثني عن الصداقة لا الحب !

خالد يكثر من الاستفسار والتصريحات الصحفيـــة .. ولكنه ما عاد يقول انه يحب الظلال السوداء ! ..

ما عاد خالد يفكك الطوق عن شعري الاسود !!..

ما زال احساسي بأني حبات عقد انفرط تتقاذفها الاقدام في زحام ما يملؤني ... احساس مخيف .. ووحدة . فــلا قيمة للعقد .. مهما كان ثمنه اذا كان نصيبه اقداما موحلة..

وفي امسيـــة ذهبت اليه .. وحين دخلت البهو اعري اللوحات من الستائر .. وجدت آثارا لزجاجة عطر !!..

زجاجة عطر ليست لي !!..

تركت كل شيء على حاله ..ويقيني يملؤني بأنني تركت روحي في تلك البقعة من داره .. وجريت الى هناك .. فلقد كنت اعرف اين يفضل ان يقضي امسياته ..

وهناك..وفي المكان الرابض على أعلى بقعة في القاهرة.. بجوار الاهرام .. هناك كانت عربته .. وبداخلها نفس رائحة العطر التي كانت في داره ..

سيجارتي تكاد تحرق أناملي المطلية بالاحمر القاني .. فالقي بها في الطريق ....

وحين بدأت في ادارة محرك السيارة .. كان خالد يخرج مع جمع كبير ولكنه يخرج متأبطا ذراع شقراء ...

وفي داري كنت في حاجة ان اكلم انسانا .. فتفرست في جميع الوجوه حول المائدة الخضراء ... ووددت لو ارتمي في صدر عمر .. اشكو له همي .. اشكو له خالدا ..

وددت لو يعاتبني .. يهزني .. يرجوني بالقوة مرة .. وباللين مرة أخرى .. ان اكون له .. ولكنه لم يفعـــل .. لم يتحرك من مكانه .. وحين اقتربت منه وهو يتفرس في الورق بين يديـــه .. وتحسست بأصابعي شعره .. صرخ منتفضا وقال :

— مها .. لقد خسرت الدور .. ان وجهك شؤم علي.. يا لك من طفلة !!..

تركته للورق !!.. وعدت الى حجرتي .. أنظر في المرآة الى وجهي المرتعش ... واحدق الى اركان الحجرة..وخطرت لي فكرة .. لماذا لا اشاركهم لعبهم ؟؟.. وفي هدوء مـــددت يدي واخذت مبلغا من المال ..

كانت عين الشلة تلمع من الفرح .. وقبل ان ينطفىء بريقها كنت قد خسرت كل المبلغ والبقية الموجودة لدي ...

ومع تكرار تلك الامسيات .. اكتشفت اشياء كثيرة .. فجميعهم لصوص .. كل منهم يسرق الاخر باتفاق مع بعضهم..

كلهم سرقت منهم الراحة .. فسرقوا هم الناس !!..

مللت الورق .. وتلك المائدة .. والسرقـــة كذلك .. جميعم كل بدوره .. وعلى حدة .. ينفرد بي لثوان لنتفق معا على سرقة الاخرين ...

ولكني مللت السرقة .. ومع مرور الايـــام .. وتلـــك الامسيات .. كان عمر يقلل من صداقته للكـــأس ويعشق الورق !!.. وكان اهنأ حالا ..

شعور كريه .. أن أعرف ان زوجي يسرق .. انه يفعل اشياء .. وأشياء كريهة جدا .. كان يرويها لي بهجت بـــك باناقة مؤثرة ..

عمر لا يشفق على الاخرين .. فما سبب شفقة خالد عليه ؟؟ وتقفز هذا السؤال الى عقلي كأنه موجة شتاء تلطم وجهي في قسوة لتغرقني في دوامة من الشك .. ولا ارى الا خالدا والمراة الغريبة ...

والمراة العارية من الظلال ...

ولكن الفشل لا يعني أن أستمر في فشلي مع عمر ..

فالتفكير في كليهما يملأ نفسي مرارة وأسى ..

وعدت الى داري انا .. دار والدي .. بيتي الاول والاخير .. ومشيت الى حجرتي أتحسس فراشي ..

اشم رائحة وسادتي ..

رائحة ايامي الغالية ...

رائحة الطمأنينة والاستقرار ..

واغمضت عيني .. ومشيت اتحسس دولابي .. ثم مكتبي الصغير .. ومفتاح النور .. وفرحة تملأ أناملي .. فرحة مرتعشة .. ورائحة داري انا تملأ روحي .. انا هنا استشعر كياني .. وانسانيتي .. انا هنا مها ... مها الرقيقة ..

أنا هنا ابنة ابي الغالية ..

ها .. ها ... ها .. في داري يوجد رجل يحبني بصدق ...

يحبني بلا مقابل ..!!

يوجد ابي .... ونظراته الحانية .. تفيض من لفتاته .. وسكناته ..وحركاته .. حتى وهو غارق في موسمه وكتبه .. وكل تفكيره مركز فيما يفكر .. أحس به يحبني بصدق ..

العيون .. عيون الاهل والاقارب .. تحوطني من كل جانب .. تراقبني او هكذا خيل الي .. وانا اكرهها ..!!

انا اكره العيون الضيقة منها والواسعة !!..

وقررت أن التحق بمدرسة لتعليم التمريض .. فكنت اقضي فيها كل نهاري .. وأعود بالليل منهكة .. لادفن وجهي في وسادتي وأنام ...

كنت احس اني اعمل كآلة .. بلا تفكير .. بلا هدف .. بلا أمل ...

وبلا رفق كذلك !!..

اليوم عطلة رسمية .. وانا جالسة في داري .. أتـــابع اخبار خالد من صفحات الجرائد .. واحيانا أقنع نفسي بأني عفوا هكذا أعرف أخباره بسبب قراءتي للصحف ..

ثم اغفو قليلا .. واصحو لاعود للاغفاءة من جديد .. اليوم طويل .. ممل جدا ...

التعلم يأخـــذ كل وقتي .. لا يشعرني بالوقت ولا بالزمن ..

ما قيمة الزمن .. في الماضي كنت احس أن الليل والنهار خلقنا من اجلنا .. ان النسمة العطرة .. والكلمة الرقيقة.. والنظرة الحانية .. كل هـــذا خلق ليصنع لنا اطـــارا حول وجودنـــا ..

والدي يحاول جاهدا أن يخرجني من عزلتي .. من تلك الدراسة التي احببتهـــا كثيرا .. والدي يحاول جاهـــدا أن يخرجني من عزلتي ..

واليوم عطلة .. وهو يعرف هذا ..فيصر في الحاح ان اذهب معه الى احد أصدقائه حيث يقضي أمسيته .. وهناك في

دار صديقه .. وعلى ضؤ الشموع الحمراء وطنين الموسيقى وهي تعزف تلك القطع التي كنا نسمعها سويا ... ووجـه والدي الحاني .. هناك في دار صديقـه احسست اني اعود القهقرى .. اعود الى البعيد لاحيا صورة كاملة من ماضـي مع خالد ..

الموسيقى .. والشموع .. وهو ! ..

نعم .. هو .. كان بين المدعوين بقامته المديـدة .. وراسه الذي اخاف ذكاءه .. وسيجارته التي لا تنتهي ..

يتكلم .. والجمع يصمت .. يضحك .. فتضحك الدنيا ويضحك الجميع .. !

خالد بشخصيته الفريدة .. يؤثر في اي شيء .. وفـي كل شيء ..

وانا بعض من شيء .. يا لعذابي ... !

يضحكني .. ويبكيني .. في وقت واحد ! ..

أجواء .. واجواء يشدني اليها رغما عني .. يحيينـي مرة .. ويميتني مرة اخرى .. والجمع يحيا معي .. ويتركني دائما اموت وحدي ..

ويقترب مني في رفق .. ليسأل عن احوالي .. فأحكي له قصتي مع مدرسة التمريض .. ويسمع في هـدوء .. ويشجعني كعادته .. يشجعني اكثر واكثر .. ثم يقول فجأة :

ـ يا غاليتي الرقيقة .. لم هذا السجن الذي تحبسين فيه شعرك ؟ !

ـ خالد .. وهل عاد شعري يهمك ؟؟ .. ظلالي التـي نمت بين يديك ؟ ..

وهل بقي لي مكان في يدك ؟؟ .. انت لك كهف ذهبي!.

ـــ مالك يا مها تغارين .. انت تغارين .. ما أحـــب المرأة القليلة الثقة في نفسها ! ..

ـــ نعم كنت اغار من زجاجة العطر ! .. من آثارها في بيتك .. من ذهابك معها في كل مكان .. وذراعك تطـــوق خصرها النحيل و .. و .. و ..

وجرت في شحوب الدموع في مقلتي .. وخالـــد يمسح عبراتي .. يحار ماذا يعمل معي ..

وعدت في اليوم التالي الى مدرستي .. اتعلم فـــن التمريض .. وادفن نفسي .. ووقتي .. وتفكـــيري . فان الاتقان وسيلة رائعة للهروب ..

ومثل المرضى تماما .. تلك الكلمة الرهيبة .. المرض الذي يطفيء كل شيء .. المرض يزوي كل جميل ..

خالد ينطفيء .. وينزوي .. وتلك الهالة المحيطة بـــه تخبو .. تضعف .. وينعزل في بيته .. بين رسوماتـــه . يحاول ان يخلق من جديد ..

نداء يهتف بي .. نداء يشدني ان اذهب اليه .. ولكني اضيع نفسي في التعلم .. اهرب وانا اتعلم .. لا التفت الى الالة السوداء الباردة .. وهي تدق .. وتدق .. لانـــي قاطعتها .. فما عادت لي حاجة اليها .. أنا لا أمسها مهمـــا جرى .. أنا لا أمس كل ما يذكرني بنفسي .. كل ما يذكرني بخالد ..

وهذا الطبيب الصغير الجسم والتركيب .. اللامـــع الشعر .. ينظر الي في اعجاب ..

لقد كنت في هذه المدرسة بمثابة الشيء الغامـــض .. الذي كل واحد منهم يريد ان يكتشفه .. بل يريد ان يكون أول

المكتشفين له ..

فما لي أنا وما للتعليم ؟ .. سيدة مجتمع تدوس الفراء لترتدي هذا الرداء الابيض وتتعلم .. !

كانت تضايقني هذه الملاحقة من كل الاطباء .. كلهم يرى في عيني شيئا غامضا .. يدعوهم كلهم للبحث عنـــــه .. وسؤال الزميلات والتقاط اي عبارات من فمي ليفسرها كـل حسب تصوره .. !

امسيات كثيرة كنت أقضيها وبجواري هذا الطبيـــب الدقيق التكوين اللامع الشعر جدا .. يعلمني .. وفي عينيه نظرة حائرة .. وانا اشفق عليه .. فما هو الا صورة متكررة مثلي تماما ..

فلقد احببت قمة .. احببت هالة مضيئة .. احببــت ذكاء رجل كنت احس في اعماقي بضآلتي بجانبه ..

وهو مثلي تماما .. فأنا أشفق عليه .. واجلســـه بجواري .. يتكلم .. ويشرح اي شيء .. وانا اسمعه .

وهو سعيد بهذا القدر من المكوث بجواري ..

- ٦ -

مرحبا بخالد .. مرحبا به في عزلتي .. فأنا احب عبث يديه في ظلالي الغزيرة .. ومرحبا بتلك الدوامة التـــــي يحييني فيها ..

فأنا أكره الوحدة ..

أكره الصمت ..

والصمت للقبور فقط .. وعبير من الكبرياء سرى فـــي

اوصالي .. فان خالدا لم ينسني .. ان خالدا لا غنى له عن ظلالي السوداء ..

الدنيا تبدو جميلة .. الدنيا رائعة .. انها لا تأخـــذ هكذا فقط ..

الدنيا تعطي خالدا .. وخالد يعطيني كل شيء ..

وعادت ايامي تحلولي .. وعدت استيقظ على صوته .. واغفو على انفاسه ..

عدت أحيا ..

فأنا لم اعد امرأة مهجورة .. أرفع رأسي بين الجميع .. بل احدق الى كل العيون .. العيون التي كنـــت اتوارى منها زمنا ..

عدت لاحدق اليها بقوة واصرار ..

وخالد سعيد بي .. فأنا ملهمته الغالية ..

وعاد شعري الاسود يطول .. ويطول ليلثم اصابعه..

ولكني كنت احس دائما بعد لقائي بخالد .. أنه علـى رغم تظاهره بالسعادة والحبور .. والفرح برؤيتي .. كنت احس أن بعضا من اعماق نفسه هارب مني .. فهو كثـــير التدخين .. كثير التأمل .. يكثر من الضياع حتى وظلالي بين يديه .. ومهما حاولت التقرب منه فهو بعيد .. بعيد ..

بعيد .. في عالم يخفيه عني .. عالم ربما كان ضيقــا وربما كان رهيبا ... !

كان يعاني من ازمة في عمله .. لا اعرف مصدرها .. كان على غير وفاق مع من يعمل معهم .. مرات ومرات حاول السفر كعادته بقصد العمل فلم يوفق ! ..

وفي كل يوم كانت شهيته للطعام تضعف .. وتضعف ..

حتى خيل الي ان شهيته للحياة بدأت تموت هي الاخرى ..

وفي يوم ميلادي كنت على موعد معه .. يا له من يـــوم ميلاد لامرأة .. اعدت الساعات .. والدقائق للقائه .. فأنــا لم اعد أطمع في اكثر من ان القاه ..

وذهبت في الموعد المحدد الى هناك .. في المكان البعيد.

هناك بجوار النيل .. وكان الوقت وقــت غروب .. وخالد لم يشرق علي بعد .. وانا لا اصدق واستنكر وقفتــي الغريبة هكذا وحيدة ..

وفجأة طعن النيل الشمس ليغيبها في اعماقه .. تاركا على شدقيه الواسعين خضابا من دمها المرتعش .. ورويدا .. رويدا .. يبهت اللون الدموي ويسود لونه .. ان النيل فــي الليل كئيب ومخيف ..

وانا واقفة في مكاني استعطف النجمة الضالــة ... استجدي الهلال الشاحب .. لعله يهديني ..

ولكن خالدا لا ياتي والسخط يملأ اضلعي .. واحساس بأنني دمية يلهو بها يملؤني بل ويطفح مني في شكل دموع ... دموعي كثيرة غزيرة ممتزجة بأصباغ عيني السوداء .. فأنــا في وقفتي كذلك .. لا امتلك غير دموع سوداء .. تكتب علــى وجنتي كل معاني الذل والضياع ..

نعم .. ذل وضياع .. فلقد قبلت ان اعود اليه بعــد ما رأيته بعين راسي في اكثر من ركن من اركان المدينة مــــع شقرائه الباهتة .. ولكني في خضم فرحتي بعودته نسيــت كــل شيء ..

انقل نظري بين الطريق والنيل .. فاسمع له صــوت الندم المرير في حق الشمس .. ربة الخير والطيبة .. وارى

صفحة وجهه يكسوها الغيظ والندم .. وجهه الذي يحمل طابع القسوة والالم .. ثم يعلو صوته تدريجيا يستنزل اللعنـات على نفسه .. وعلى كل شيء .. ولكن دون جدوى ..

فمتى كانت اللعنات تريح الضمير او تكفر عن الاساءة ..

وخالد لا يأتي والسخط يملأ اضلعي ..

واحساس اسود لئيم يزحف الى قلبي .. شعور مر .. اني اتصور انه من الجائز ان يكون متعبا .. ثم اعود لاستبعد كل هذا ..

فمحال ان خالدا لم يتعد الحلقة الخامسة .. ولكن من الجائز أن يكون ....

وجريت كالمجنونة في الطريق .. الى ان وجدت نفسي في داره وحيدة .. افتح جميـع الحجرات .. أنبش في سريره باظافري .. اعري كل لوحاته .. انادي عليه .. انادي :

ــ خالد .... خالد ... وفرحـة مجهضـة تخترق روحي .. لقد عثرت على سطور موجهة لي وكان يقول فيها:

« ربمـا تصلك سطوري .. وربمـا لا تصلك علـى الاطلاق .. فانا هذه الايام أتصرف وفق دوافعي وحـدها .. دون ان اناقش اي تصرف حتى مع نفسي .. وانت يا غاليتي الرقيقة ، ما ذنبك في كل ما اعانيه .. ما خطيئتك في ذلـك الضياع الذي بت أحيا فيه ..

سيدتي .. انا اعفيك من نفسي المتعبة .. من ذلـك الضوء المحتضر .. الذي يحوطني من كل جانب .. ولكن يـا غاليتي الرقيقة لا تنسى ان تفككي الطوق عن شعرك الاسود »

(خالد)

لم استطع ان احدد تماما احساسي في تلك اللحظات ..
ولكني موقنة انني اتنفس اعمق مما كنت .. وارى اوضح مما كنت ارى .. فلقد كان كل همي ان اعرف انه بخير ..
ولكن تبا لهذا الرجل .. يشقيني .. ويؤرقني .. يخنق كل ومضة كره تجاهه .. فأنا لا استطيع ان اكرهه ..

شعور ممل ان لا استطيع ان اكره انسانا .. وأظل هكذا ادور في بوتقة هيكله .. الى ان احترق .. وبعد الحريق الرماد .. وبعد الرماد العدم ..

العدم .. العدم .. كلنا الى العدم ..

فلأختر عدمي بطريقتي الخاصة ..

يا له من يوم ميلاد لامرأة .. !

فلقد صعدت اولى درجات العدم .. في امسية بعد ذلك اليوم ..

في تلك الامسية التي كانت تمطر .. تمطر ضيقا ..
تمطر مللا .. تمطر رذاذا يعقد شعري الطويل ..

وخالد لا يحب شعري مبتلا ..

وتحت قلب اريكته الحمراء .. كنت اجلس ادخن سجائري .. وحين سألني قلت :

— انني انتحر يا خالد .. !

— أتنتحرين يا مها ؟ !

— نعم .. انت استاذي في هذا .. فوالله انني لن اغادر هذا المكان الا بعد ان اشرب عدد ما شربت من سجائرك ... !

— عفوا سيدتي .. ولكن هذا قدر كبير عليك !

وامسك ذراعي يأخذ النار ! ..

ــ ابنة ارضك اولى بمشاكلك .. أم انك تفضل مشاركة الشقراوات .. يا خالدي ! ؟؟

نظرة محتضرة .. وبسمة صفراء كانا جوابه .. ومـــا زالت الهالة المحتضرة تتراقص فوق رأسه الذكي ...

خالد وعدني ان يكف عن هذا القدر الهائل من الدخان..

خالد دائما يفي بوعده .. ولكنه لم يفتح لي صدره .. لم اعرف التفاصيل الدقيقة التي تشغله .. كان يتجنـــب الخوض في تلك الموضوعات .. وكنت بالتالي أحترم رغبته ..

وفي داري انا .. دار والدي .. وحيدة في حجرتي .. كان هناك احساس دنس ينبض في اعماقـــي .. احساس رهيب .. احدث به نفسي .. فما كان يمكنني الحصول على خالد وهو ملك متوج في حياته السابقة .. ولكن يمكننـــي الحصول عليه الان ...

يا لغبائي .. كنت ابكي الليالي الطويلة .. الليالـــي الغريبة حزنا عليك .. على كل ما انت فيه .. ولم اكن اعرف ان فيه الخير لي .. ان فيه الزاد لي .. فأنت يا خالد انـت زادي الوحيد ..

نعم .. كنت افضل الحصول عليك في قمتك .. كـــان هذا يشبع نفسي .. يروي ظمأي الى الحيــاة التي لفظتني وخلقت مني زوجة سابقة منزوية .. زوجة لا يحس بهـــا احـــد ...

وهنا تقفز الى مخيلتي ذلك الوجه .. وهاتان العينـــان الضيقتان المحرومتان من الاهداب وذلك الشعر الاســـود والابيض ...

تقفز وجه عمر الى مخيلتي .. هذا الرجل نسج منـــي

امراة ضائعة .. جعل مني ماذا ؟؟

لم يجعل مني شيئا .. فهو غير قادر على اي شيء ..

لقد اصبح هو الضائع الان .. يرجوني .. ويرجوني كل يوم .. كل ساعة .. ان اعود اليه ..

عمر .. عمر زوجي السابق .. يوكل اليه عمل جديد .. ها .. ها .. ها ..

فأنا ربما لا اعرف كفايته كرجل عمل .. ربما كانت له شخصية مزدوجة .. الاولى شخصية فاشلة في الدار .. والاخرى ناجحة في العمل .. او ربما يشفقون عليه ..

نعم .. فلقد كان اولى الناس بالشفقة .. لانه دائم العذاب بسبب زوجته الهاربة .. وكأن العذاب خلق ليكون توامه المفروض ..

مسكين هذا الرجل .. فما زال يرجوني بحرارة .. وانا احدق الى عينيه الضيقتين لعلني المس تغييرا .. لعلني احس ان رعشة السخط التي كانت تختلج في كياني قد خفت حدتها ..

ولكنه كان كما هو عمر .. عمر .. الذي لا يتبدل مهما حدث .. كنت انت .. انت بغرورك ..وعنادك .. وغبائك احيانا .. بل احيانا كثيرة ..

كنت تأتي لتلقي علي محاضرة في الحياة الزوجية .. ثم تنفض قامتك في الهواء الطلق وتنصرف ..

وخلال لحظات انصرافك .. اسمع دقات رتيبة وحزينة .. تذكرني بطفولتي .. ومدرسة الراهبات القريبة من دارنا .. والاخوات يحاولن بالقوة مرة .. وباللين مرة اخرى .. ان يرغمنني على المشي امام جنازة احد الاباء ..

صوت دقـــات ساقك تنقلني بسرعـــة مـــذهلة الى الماضي البعيد .. ويملأ اذني بتلك الموسيقى المتزجة بصوت اقـــدام الاطفال .. وانت تنصرف .. تنصرف عني يا عمر .. بـــــلا وعود بالحب .. بالحنان .. بالمشاركة .. لا وعود بأنني لست صغيرة الى الحد الذي كنت تنظر الي به في الماضي .. لا شيء جديد غير قبلتك الرسمية تطبعها على اناملي فـــي سخـــف ...

مسكين انت .. لا يستطيع المرء ان يحبك .. وكذلك لا يستطيع ان يكرهك .. لا يستطع حيالك الا ان يكره نفسه .. وشلتك الضائعة تنفض من حولك ..

عفوا سيدي .. ليست هي الراغبة في ذلك .. ولكنك انت .. تطرد الواحد تلو الاخر .. فلقد سئمت كل شيء .. وتلوح لي بأنك استغنيت عنهم .. ولم يعد يبقى لك غيري..

ولكني اعرف يا عمر .. انك تبقى لي لتضع يدك على خدك .. كأمراة نقدت عائلها .. تضع يدك على خـــدك .. وتتيه مني في اغوار لا اعرفها .. !

فأنا لم اعرفك بعد لاعرف اغوارك ! ..

ثم تفتح الشاشة الصغيرة .. ليقع بصرك مثلا علـــى خالد وتؤنبني وتهزأ منه .. وجميع آرائك السابقة عنه وعن طاقاته التي تفوق طاقة والدي الاكاديمية تتلاشى في بوتقـــــة انانيتك ... وبهذا انا لا احترم لك رايا .. ثم تحاول ان تملأ كأسك واشجعك .. فأنا اصبحت اؤمن بالسوائـــل المخدرة لك .. فهي الوحيدة التي تخرجك من معبدك المظلم ..

آه يا لهاربتك الشقية !.. لو كانت تعرف كم تتعذب.. كم تفشل .. كم يتكرر فشلك كل ليلة .. ولكنها لا تحس انها

في الخارج .. خارج وطنك لا تعود من هناك .. وانت تنتظر وحتى بعد كل هذا بعد كل ما حدث واكثر .. فانا اؤكد لـــك انك ما زلت تنتظرها ..

فأنت لا تعرف غير الانتظار ... !

وانا آه يا انا .. اقدر عذابك .. فانا لم اعد احقـــد عليك كأمسي ..

فكما قلت لك .. لقد طهرني الحب .. طهر اعماقي .. وعلمني الصفح .. لم اعد احقد عليك .. ولكنـــي لـــن اعود اليك ..

فلقد فقدت القدرة على اسعادك انت بالذات .. فانا لن احتمل كلماتك الجارحة وكأنك تريد ان تخلق مني صورة لها..

انت يا عمر تحبس كل شيء في نفسي .. حتـــى شعري ..

وخالد يحب شعري مسدلا ..

وانا احب ان أنثر دائما ظلالي الغزيرة ..

عيناك عذابي .. عيناك اللتان خلقتا لتنظرا الي فـــي كره وفي حقد ! ..

على ماذا ؟؟ .. ربما في الماضي لانني لم اكن قد تعذبت مثلك .. ومع ذلك فبعد ان تعذبت وانت تعرف هذا .. مـــا زالت نظرتك الي ساخطة .. عيناك تصرخان بهذا حتى وانت ترجوني ان اعود اليك .. !

حتى وانت تعطيني هذا الوهم الكبير .. !

وهو ان اصبح اما لطفل ... !

الحب خلق مني انسانة شفافة ..فأنا استشف الحقيقة من عينيك الصغيرتين .. مهما ضحكت .. ومهما منيتني ..

مهما .. ومهما ..

فحين تحني راسك ذا الشعر الاسود .. والابيض .. وتمد شفتيك الغليظتين لتقبل راحة يدي ..

اتخيلك في دقائق .. وانت تمد شفتيك لتقبل راحتـــــي طفلك الصغير المزعوم ..

ولكني فجأة ارى في عينيك الكره .. الكره كله .. وارى في شفتيك الضجر .. وكأنك تساومني مقابل عودتـــي ان تمنحني هذا الطفل .. !

انها ليست معادلة حسابية كالتي تقوم بها في زيارتـــك للشركات يا عمر .. !

ولكن ما حيلتي ان لم يخرج هذا الطفل الى الحياة .. وعليه سمات الهاربة .. فمن المؤكد ان هذا لن يحـــدث .. وتصورتك تكرهه او تكرهها .. لمجرد انها تشبهني ولهـــا خصالي ..

هي الاخرى .. ستحب ان تطلق شعرها هكذا يداعبه الهـــواء ..

هي الاخرى .. ستشد الثوب على خصرها ..

هي الاخرى .. ستهوى القراءة .. هي .. وهي ..

وتصورتك تضربها .. تضربها وهي صغيرة .. وتشد ظلالها السوداء .. ثم تقذف بها في آخر الحجرة ...

وانا كما قلت لك لا احب ان أشقيك معي ..

فأنا ارفض .. وانت ترجوني بالايام .. انت عمر .. عمر .. من كنت تتباعد عني شهورا كاملة .. لا يقع بصـــرك علي .. تتوسل .. تقبل يدي .. تلك هي الدنيا .. وهـــذا ما اخافه فيها .. وانـــت يا عمر بكل ما تفعل تخيفنـــي

من الحيـــاة ..

توسلاتك .. نظراتك .. كل ما يصدر عنك .. خيرا .. أم شرا .. يخيفني من الحياة فلا دوام لشيء ! ..

من كان يلفظني بالامس .. يحبو الي اليوم .. !

وأنا لا اشعر بأي لذة كما تتصور .. انا لا اشعر بـــأي مرح او انتصار .. لانك تدق ابواب الاقارب بعد يأسك مـــن بابي .. طالبا عودتي اليك .. لا .. لا .. يا عمر . انـــا لا اشعر بشيء ..

ولكنك تزيد امواج الخوف القاتم .. تدفعها الى قلبـــي الصغير .. الى عمري الصغير .. الى كل شيء .. حتـــى بات الخوف منك .. ومما يحيط بك دما في عروقي ..

عمر .. اني .. اني خائفة من العالم اجمع .. خائفة من عالمك .. خائفة من عالمي .. !

فعذابك يعذبني ..

شقاؤك يشقيني ..

فأنا لم أتخلص منك كما تصورت .. والا فلم تشقينني؟

ربما الحب هو الاخر علمني هذا من شدة ما صهـــــر مشاعري .. واحاسيسي .. في بوتقة دافئة حانية ..

لونها يا عمر وردي .. ! .. فتلونت احاسيسي بهـــذا اللون .. فأنت تعذبني لأني في اعماقي احس بعذابك ..

ليتك تكرهني .. ليتك تستمر كما كنت ضجـــــرا .. ضجرا مني .. ولكنك يا عمر لا تفعل ، بل تدق الابواب .. كل الابواب .. كل الابواب .. لعلك تجدني في احدها ..

وانا اشعر بضآلتي بجوارك ..

اشعر بأني قطرة في محيط انسانيتك .. فأنت كبـــــير

القلـــب . .

انت غفار . . ولولا هذا ما أتيت بعد كل ما عرفت عـــن خالد . . وقلت لي :

ــ مها . . لقد غفرت لك من قبل . . سواء أكان هـــذا من اجلك . . ام من اجل خوفي من تكرار حدث كما تقولين . . ولكني غفرت لك . . فأرجو ان تقبلي العودة الي . . وفكـــي الطوق عن شعرك . . افعلي ما شئت . .ولكن عودي مها . .

وانا لن اعود سيدي . . فانا لخالد . . ومن أجلـــه . . أحيا . . فهو الامل وهو الغاية . . هو الطمأنينة . . وانت يا عمر اختر زوجة اخرى في العقد الرابـــــع من عمرها كمـــا تقول . . وليست طفلة . . و . .

هكذا أنت تركت براكين دائمة في اعماقي . .

براكين لا تخمد الا لتثور من جديد . . !

وانت يا صانع البراكين غير قادر على ان تخمدها . . !

وذهبت بعيدا عني . . ولكن بعـــد أن أحزنتني . . أشقيتني . .

لقد جعلتني ضجرة من نفسي . .

فأنا لا أستطيع الصفح مثلك . . لا أستطيع الغفران . . وأنت يا عمر غفار كبير . . .

وأنا ما زلت بعيدة . . رابضة أسفل الهوة التي صنعتها بيديك . .

ربما لانك ما أحببتني يوما . . فلهذا تصفح . . او ربما لانك تزوجتني ولم تشف بعد من هاربتك . . ومع هذا فانت محق . . فمعها كانت أيام شبابك . . ومعها كذلك وبسببها . . ودعت الشباب وأنت تودع بعضا من جسدك في تلك الحادثة

اللعينة ..

هذه المرأة حفرت بالدم والحب في كيانك .. ولكني مع هذا .. لا انكر انني احببتك زمنا وكنت ارى في شعرك الاسود والابيض الليل والنهار معا .. تصور .. أيمكن ان يرى الليل والنهار معا ..؟

هكذا كنت افسر طبيعة شعرك ..!!

خيالات صبيانية كما كنت تقول لي .. كما كنت تصدني يـــا عمر ...

ومع هذا فأنت افضل مني ...

انت غفار .. وانا ما زلت رابضة في اعماق الهوة التي صنعتها بيديك ... وذهبت بعيدا .. بعيدا فلم اعد اسمــــع عنك خبرا .. وبهذا هـــدات .. وتسلل احساس ببعض من الراحة والهدوء الى اعماقي .. اعماق قلبي ...

خمدت الضوضاء التي صنعتها من الكـــلام .. وسكتت الالة السوداء ...

صمتت .. فلا الاهل .. ولا الاصدقاء .. هم الاخرون يتكلمون ...

نعم كان بعض من اصدقائـــك يتكلمون .. جزء منهم يخطئني والاخر يخطؤك ..

ولا يعلم احد .. لا يعلم شيئا عن اغوارك القلقة ..كلهم يتكلمون .. ولكنهم لا يعلمون انني مللت المداراة .. مللت التمثيـــل .. انني طلقت من سنوات .. وليس الان .. لا يعلمون انني اعتدت الطلاق منذ سنوات ..

طلاق روحين من بعضهما .. وعاش كل منا في عالمـــه الخاص ..

اذن هم يتكلمون في قضية خاسرة .. عفى عليها الزمان من سنوات مضت ..

واحيانا يلوحون لي بمنصبك الكبير .. لقد كنت تحب ان تسمع هذه الكلمة البراقة وتحب ان تقال عنك .. فكنت في اغواري .. في اعماقي .. أحب ان ارضيك لاني مع كل هذا انا في داخلي شخصية الزوجة التي ترضي زوجها ..!

نعم .. زوجة منذ زمن بعيد .. فلقد تزوجتني أصغر من الصغر نفسه !

فاعتدت ان اكون زوجة .. زوجة في كياني .. وفي كلامي .. وفي اعماقي ..

فأنا دائما اقول لمن حولي .. لاقاربك ولاقاربي .. انك ذو منصب كبير .. فقط لارضيك .. واتصورك تنفض قامتك المديدة في الهواء وتهز ساقك اللعينة بطريقة عصبية .. وتسبل عينيك الضيقتين الصغيرتين جدا .. وتسترق السمع جيدا .. وهم يقولون لك :

ــ انها تقول ان منصبك كبير .. !

ثم تهب لمحادثتي قائلا :

ــ ان منصبك الكبير الجديد يحتم عليك السفر الى الخارج .. وتود ان تنتهي من اجراءاتك لتغادر الوطن .. ويجب ان تجهزي كذا .. وتجددي جواز سفرك .. و..و..

وكعادتك يا عمر في غمرة اعتدادك بنفسك .. كنت تخطط من شدة فرحتك بالرحيل فتتكلم عن الغد ..

عفوا .. عفوا سيدي .. يا لك من رجل ! .. كم كنت اتمنى ان تغمض عينيك ولو قليلا عن الغد .. وتفكر في امسنا الجاف .. امسنا الحائر .. تفكر فيه .. فما فائدة

السفر وكلانا كما كان ..

يا آلهي نسافر لنضيف الى جبل فشلنا حجرا جديدا .. ربما يكون له بريق اكثر لمعانا .. ولكنه حجر في قبـــر حبنا الدائم ...

طيبة منك ان يبهرك كل جديد يا عمر .. ان تأمل فـــي الغد هكذا سريعا .. ان تثق في عودتي اليك ..

انا ما زال المر يتقطر من لعابي .. المر يزداد فـــي قلبي .. في نفسي ..

فأنا يا عمر ما زلت انزف في مرارة حتى وانا اقبـــل خالدي الوحيد ..!

لا ادري ما الذي صنعته بي هـــذه الليالي الطويلة ... هذه السنوات الغابرة .. افقدتني طعم الحياة .. وكأنه حدث في روحي شرخ بلا صوت .. بلا ضجيج..شرخ في اعماقي.. فكيف لي ان اعود اليك .. ؟؟

احيانا كنت تقول لي :

ـــ انت تخافين آلام الوضع .. في الخارج لن تشعري بأي آلام .. الطب هناك متقدم ..

الخارج ..وآلام الوضع .. انت تريد ان تجنبني اياها.. وانت لا تدري انني أتمنى أن تكون هذه آلامي بدلا من آلامي وأنا أرتدي ثوبي الاسود .. واشده على خصري بقوة وألم..!

آلام خلقتها الموضة .. وخلقها جنوني بنفسي ..

أما تلك فخلقها الله ..

لم يعد شيء في كلامك يقنعني .. ترى هل كبرت الـــى الدرجة التي اصبحت أشعر فيها بصغر افكارك وكلامك ..؟؟

وأخيرا يئست وفي زحام حيرتك من رفضي المتكرر..لانك

لم تفهم ما يختلج في صدري .. في زحام حيرتــك من رفضي المتكرر ..

تكلمت عني .. وعن خالدي ..فليس امامك غير هذا..

ليتك ما فعلت .. فلم تزدني الا يقينا بأني أبتذل نفسي بعودتي اليك ..

وعادت صورتك تتجسد أمام عيني التعبة .. كأنها لوحة لم تتم بعد .. وأنت ما زلت تتكلم وتتكلم ...

يا لطفولتك يا عمر !.. عفوا ان الطفولة بريئة منك .. حتى لا أصدق انك كنت طفلا يوما ما ..

اتصور ؟.. اتصور !! انني كنت سعيــدة .. وانت تتهمني .. تمزقني .. هكذا أمام الخلق ..

تتصور انك اسعدتني .. جعلتني أنام هادئة ...

تتصور أنك صانع هذه الراحة ..

فيا لك من مخلوق احيانا .. تصنع في نفسي براكــين لا تخمد .. واحيانا تريحني وتسعدني بما تصورت انــــه يشقيني .. يضعفني .. يطفىء كل ومضة كبرياء فــي .. ويجعلني اعود اليك .. لقد اعطيتني احساسا بأنني في معركة لا بد لي فيها من الفوز ...

انا لم اعد اضيق من تصرفاتك .. وانت تدق الابواب.. كل الابواب .. بعد يأسك من بابي انا ..

فأنا لم أعد اشعر انك غفار كبير .. وانا رابضة في تلك الهوة السحيقة ..

لقد عدت قويا كما كنت .. قويا جدا .. الى درجــــة انك تلوكني في كل مكان ..

عدت تأخذ صورتك الاولى .. عدت كما كنت عمر ..

فرحلت وسافرت .. تركت لك الدار .. والالسنة الصاخبة .. التي كان يزعجني بها الاقارب والاصدقاء ..

سافرت حيث يوجد البحر ..

وهناك على صدر الامواج الثائرة كنت اسعد حالا ..

فالجرح باق .. جرحك يا عمر .. ولكن هناك في هذا البعيد على صدر الامواج .. لا احد ينبش ليل نهار في جرحى ..

هناك يا عمر كانت الامواج تحدثني في كل شيء .. الا فكرة العودة اليك ! ..

عمر .. الامواج تكلمني عن كل شيء .. عن احلى شيء.. عن خالدي .. وكلمت خالدا وجاءني صوته :

— نعم سيدتي ؟

— خالد ..

— اهلا .. اهلا بك يا غاليتي الرقيقة .. صوتك بعيد ..

قالها بصدق وود .. دقيقة .. لحظة صمت كانت لها ساعات وساعات من الحنان واللهفة من السؤال على .. كل منا يبعث موجات .. والاخر يلتقطها متجاوبا على رغم احلك الظروف ..

— خالد لن ابقى هنا .. والا ماذا بقي لي ! ؟

— ماذا بقي لي انا يا اميرتي ؟؟ ..

ألمح وجهي شاحبا باهت الملامح .. اراه الوانا باهتة كأنه محاولة أولى في الرسم لطفل موهوب .. ابتعد عن المرآة مذعورة .. لقد انهكني الناس بكلامهم .. انا مريضة

من كثرة المجادلات .. من كلام عمر .. كلام مسموم حفـــر بعمق واتقان .. ليتني استقر ولو قليلا حتى أستعيـــــــد بعضا من نشاطي ..

وفي داري التي صنعتها بيدي .. بكياني كله .. كنـــا نجلس .. وعيناه تنقلانني من صحراء الوحدة .. الى غابات اهدابه .. أستقي من عينيه كل شيء ..

اتحسسه متوسلة .. متلهفة أحيانا .. لاني من هنا يا خالد .. وهنا اريد ان أولد من جديد .. لا اريد الرحيل ..

هذه الدار صنعتها بيدي .. وانت تحيا فيها ..

أنت تصنع من كل يوم معنى جديدا ..

عجبا .. عجبا ..

كل شيء في انا يزعجني .. فان قلبي ما زال ينبض .. مع ان خالدا يصر في عناد جامح ان يعفيني من تلـــك الازمـــة التي يجتازها ..

خالد يرفض مشاركتي له في ضيقه ..

- ٧ -

حيرى .. حيرى .. ويقين يملأني بأنني اشـــلاء .. مبعثرة .. أحاول لملمتها من خلال محاولاتي في ان ارتــــدي تلك الملابس الناصعة البياض مـــــرة اخرى .. ملابســـي البيضاء والتعليم وسيلة رائعة للهرب ..

العمل مرهق يحتاج الى تركيز .. أقف الساعــــات الطويلة .. اعد المائدة .. املؤها بالادوات النظيفة الكثيرة.. وبعد ثوان تصبح متسخة جدا يغلب عليها اللون الاحمر ..

وانا خلف القناع الموضوع على وجهي .. ارقب الاطباء وهم يتحسسون موضع الالم ويخلقون مواضع جديدةللالم .. مذعورة جدا .. اشلاء يلقون بها .. وانا اغســـل البقع من على ردائي الابيض النظيف .. والادوات اللامعة..

ولكن بقع نفسي لا تغسل .. لا تمحى بقـــع قلبــي لا تزول ..

خالد .. خالد .. اني خائفة ...

وكيف للخائف ان يطمئنني ؟ .. انه يشجعني ان ارسم من جديد .. ان اعود الى هوايتي السابقة ..

خالد يهوى العمل .. يحب الخلق الجديد .. يزيـــل خوفي .. ولكن من خلال لوحاتي ! ..

وانا اتابعه كظله في كل نقطة من هذه الارض .. اغمس فرشاتي في اللون واقذف بها على اللوح .. لاعمل بقعا بقعا..

خالد يستخرج من هذه البقع اشخاصا واحداثا .. تلك كانت طريقتك ورغبتك في التعبير عن نفسك ..

وانا متعبة من تلك الخيالات التي يصنع منها رجـــالا ونساء كلهم يعبدون العمل ..

نهاري بقع في اللوحات .. وليلي بقع على ردائي ..

وخالد ليس اكثر من مجرد معلم .. موجه .. وبعـــد البقع يسود الصمت بيننا اقطعه بأي تنهدات .. وكان يجيبني ولكن الصمت والسأم يغلفان حديثه .. وطالت هذه اللحظات الحرجة بيننا .. طالت لتحبسنا في ظلماتها .. وانا احـــاول عبثا ولكن هيهات .. كان خالد عنيدا .. يحركني يضعنـــي حيث يريد .. حيث يشاء ..

وكان لنا فراق .. لا ارى فيه خالدا .. ولا اسمـــع

صوته .. ولا يفكك الطوق عن ظلالي .. واصبح شعـــري خيوطا سوداء على كتفي .. حلية صناعية من الخيــوط .. وما معنى تلك الخيوط المعلقة هكذا في راسي بلا معنى .. بلا نبض .. ولا حياة .. فانا كما قلت اصبحت راسا لدمية صلعاء في يد القدر ..

نعم كانت دميتي وانا صغيرة في مدرسة الراهبـــات صلعاء .. شعرها في مكان وجسمها في مكان آخر .. او هكذا كنت دائما اراها هكذا .. !

امسياتي قاتمة سوداء .. واحيانا كثيرة حمـــراء .. اسمع لها انين الوحدة .. ممتزجا بانين المرضى ..وضحكات الاطباء الجافة .. وفي احد امسياتي الدامية احسست الغرفة تدور بي ... وانا ابذل مجهودا كبيرا لاتماسك حتـــى اعطي الطبيب ما يطلبه صحيحا ..

وتتوالى اللحظات مسرعة .. فالقى بالرداء الابيـــض جانبا .. واذهب انهب الشوارع بقدمي المتعبتين .. الى ان اصل الى خالد الغارق بين لوحاته .. هنا فرشاة ملقاة على سجاده الثمين .. واخرى بين نهدي اريكتـــه المفضلـــة ... وهناك في احشاء الحجرة كانت لي صورة لم تتم بعد .. !

اما خالد فكان نائما على وجه مكتبه .. واصابعـــــه تحتضن برفق كأسا فارغا .. يسقي نفسه ضياعــــا .. او نسيانا لا ادري تماما ..

خائفة ان اناديه ... رماد في حلقي .. فلا صـــــوت لي .. ترى ماذا حدث له .. وفجاة قال :

ـــ عفوا سيدتي الرقيقة .. لقد اثقلت ..

دقائق .. وما زال الرماد في حلقي قاسيا .. فــــلا

صوت لي .. وايقنت بحقيقة مؤلمة .. انه ولا بد انني تخطيت مرحلة العدم .. فكان لا بد لي من الرماد كمرحلة طبيعية اخرى ..

الرماد مع خالد !

فقال مرة اخرى :

— عفوا سيدتي .. لقد اثقلت !

— لم .. لم كل هذا ؟؟

— انت لم تخبريني اميرتي .. انك آتية لزيارتي منذ زمن ..

فقلت :

— اما زلت تذكر عبارتك .. مناداتك اياي .. اميرتي ؟

وغسلت وجهك واصلحت هندامك .. وكنت جائعة الى اشياء كثيرة .. فلم تعطني غير ما لا حاجة به .. قطرات من البرتقال ! .. شرابك المفضل ..

ثم امسكت الورق تلعب لعبة الصبر .. وتأملتك تأملت قامتك المديدة .. عيناك ما زالتا تحييانني تارة وتميتانني تارة اخرى ..

وأنا احب الحياة والموت منك .. ثم قلت لك :

— عفوا خالد تلعب لعبة الصبر .. وانا بجوارك ؟؟

— رفيقتي اروض نفسي بلعبة الصبر .. و ...

— لا .. لا .. اراهنك انه غير ذلك .. والكاسب منا يتكلم بصراحة في كل ما يريد ...

— انت ذكية يا مها وانت مسلية جدا !

— اتراني اسليك اكثر من الورق ؟؟

ومن هنا بدأنا لعبتنا .. كنت أود ان اكسب الورق حتى

اكلمه .. احكي له اشياء واشياء .. أشكو له نفســـــه .. اشكو منه .. واكلمه بصراحة ..

وشئت يا قدر ان اتكلم .. فاجلسني امامه .. فتأملته مليا .. اذكره بالصراحة التي تواعدنا عليها ..

موجات من الدموع المحرقة تندفع الى مقلتي المجهدتين..

معان كثيرة تصطخب في صدري ..

وحين احس بثورتي مد يده يتحسس ظلالي .. يطمئنني بأني لست صلعاء .. تناول يدي يقبلها .. سألني اين لونك الاحمر القاني ؟..

وانا أجمع شتات قلبي .. أطراف احاسيسي الداميــة محاولة ان اتكلم وقلت :

ــ ما رايك في ان اقتل نفسي ؟

ــ هكذا يا اميرتي دفعة واحدة !

ــ بل اكثر بطريقة لا يعرف بها انني خنقت كل ومضة في نفسي عمدا .. فلن يعرف احد غيرك ..

ــ هذه وسيلة الضعفاء .. ما عهدتك ضعيفة يا مها !

ــ اؤكد لك انني بكامل قوتي .. ومع ذلك اريد هــذا المصير .. !

ــ بالله وهل تملكين مصير نفسك .. ؟

ــ اود ان املكه يا خالد ..

ــ والامل في الغد .. اتذكرين لوحتك التي اطلقت عليها اسم الغد وجعلت اشعة النور تحيـــط براس فتاة تملــك دمية صلعاء ..

ــ وان كنت بلا غد يا خالد ! ؟

واطرقت براسك قليلا وانت تردد :

ـــ بلا غد .. بلا غد يا مها .. !

لعلك في تلك اللحظة ادركت ما كنت اقوله من ايام .. وبالايام ..

أسارير وجهك تقول هذا .. نبضك يدق بهذا .. انـــا اعرف عينك .. احس بك ..

وأبقيتني دقـــائق .. ليتراقص النور حول راسي أنـــا الاخرى .. ثم قمت تذرع المرسم ذهابا وايابا ..

وانا أحاول ان استرق السمع الى وقع اقدامك .. لقد اعتدت ان افسر اشياء كثيرة من خلال دقات وقع اقدام الناس في الحياة .. ولكني لم اسمع لقدميك وقعا على الاطلاق ..

ثم ادركت بعد ذلك انك فهمت .. وتأثرت.. وانا اروي لك كل ما يقوله عمر وكل ما يقوله الاهل والاصدقاء .. وتلك القصص التي نسجها عمر من خيوط حقده وثورته ..

نسجها حول علاقتنا الطاهرة ..

وقلت لك ان نظرات الجميع تتابعني في الذهاب الى اي مكان .. كلهم .. وكأنهم يقولون لو ذابت الشوارع والطرقات من وقع قدميك فلن يتزوجك ..

كنت تخرج كل مناديلـــك لتجفف بها دموعي حتـــى اضحكتني من شدة لهفتك علي ..

كنت تهدهدني كطفلة .. واحيانا تناديني باسماء تدليل كثيرة .. حتى تسكتني .. لقد كنت بفعلتك هذه كأنك فتحت علي بابا من الجحيم .. فكلما ربت على كتفي كنت ازداد بكاء..

واكتشفت أنني صورة بلا جوهر .. لقد تمزق وأنا أجتاز تلك المرحلة من حياتي ..ولكن الصورة الخارجية بقيـــت كما هـــي ...

لامعة براقة .. تحوطها الظلال من كل جانب ...

— ٨ —

وتزوجنا في صمت .. في جو حاول كلانا ان يستخرج منه الفرح .. بالاحتفال بزواجنا .. وكان خالد دائم الاعتذار .. في رقة .. بانه لم يستطع ان يقدم لي شيئا .. لانه لم يعد يملك شيئا .. !

يكثر كثيرا من هذا الاعتذار البارد .. كلماته تزيد السأم في نفسي .. تكثر كثيرا من القول :

— لو تزوجتك حين كنت لاحضرت لك .. لجعلت لك .. لصنعت لك ..

خالد اشكرك اولا .. ولكني اخترتك وقبلتك على ما انت فيه .. فانا لا اطمع في اكثر من ان اكون بجوارك ... في اي مكان .. ولكنك تصر ان تشدني الى مجال تفكيرك .. كم كنت تتمنى ان تجعلني الف الدنيا كلها في زورق من عاج.. ورجل القيثارة يدق لنا لحن الحياة ..

احلامك عن الماضي كثيرة .. كثيرة .. جعلتني انا الاخرى اتمنى لو اركب زورقا بقيثارة وردية .. كنت كمن تقول لي :

— على اي شيء تفرحين يا بلهاء .. لقد خبا نجمي ..

وانتقلت عدوى الضيق الى نفسي .. وعشش السأم والضياع في روحي .. وعشت معك بقلب بعضه تحطم في الماضي .. والبعض الاخر انت لا تسمح له بالحياة .. حياته الحاضرة ..

وتصر الا ان تبكيني على ماض كنت تشتهيه ..

وانت تكثر من الضياع مني فلا اجدك .. ودمعة محبوسة .. هكذا حكمت عليها انت ان تظل محبوسة في مقلتيك الحائرتين .. دمعة كبيرة تلون كل نظراتك .. كل ضحكاتك .. !

خالد .. لم اعد أميز بينك ضاحكا .. أو باكيا !

وانا في فرحتي الاولى .. في غمرة انتصاري بأنني تزوجتك .. كنت اتناسى كل هذا !

اتناساه وانا اكلم الصديقات والقريبات ..

رد اعتبار المرأة المهجورة ، رد كيانها ورد روحها بين اضلعها ..

فكنت امعن في نشر خبر زواجي .. ادعو صديقاتي لارفع راسي بينهن .. فأنا لست توأم الفشل المفروض ..

لقد كنت اجاهد لامحو من اغوار نفسي تلك الجراح التي صنعها صانع البراكين ..

خمدت الضوضاء .. هدات هذه الجلبة المحيطة بنا ..

وبقيت وجها لوجه مع خالد ..

بقيت بداخلي المزق .. في حاجة الى الهدوء .. فأنا ارفض ان احيا يومي .. بل اريد ان اتيه .. ان انام كما لو كنت اجري شوطا طويلا ..

فأريد ان انام .. ان انسى من اكون .. حتى ولو كنت محبوبة ..

فأنا جد متعبة .. متعبة جدا ..

انت متعب كذلك .. مرهق .. ضايقتك بصديقاتي .. وبتلك الضوضاء التي كنت أصنعها في المنزل برنين الهاتف

الذي لا ينقطع ..

بكل هذا كنت احاول ان اجفف نزف روحي .. ان الملم شتات نفسي واعود كما كنت .. ولكن كان هناك ضيـــق يسري في عروقي كأن لم تعد لي حاجة بالحياة ..

من اريكتي الى مخدعي انام .. أتعمد النوم طـــول اليوم ..

فأين تلك الطاقة التي كنت أسير بها من داري الى دار خالد .. وفي اي وقت ؟ ..

في البرد .. في الليل .. في آخر الليل .. في المطر سواء كان من السماء او مـــن عيني كنت اســـير حتى قال لـــي خالد يوما :

ــ ظننتك ستكونين أحسن حالا يا مها ؟؟

ــ انا بخير .. بخير كثير يا خالدي ! .. وتواريت منه في مخدعي ادفن راسي في الوسادة ..

شيء سقط مني .. شيء ضاع وانكسر بلا ضجيج في اعماقي .. ولم ينفع صدر خالد في العودة الى الحياة ..!

وفي ليلة عرض علي خالد اطلاق حريتي ... ودارت بي الارض والسماء .. فلقد فجرت هذه الكلمة شحنات وشحنات من الرعب .. والخوف في المتصدع الذي ينبض في صدري..

فكفي ما قاسيته في الماضي.. فأنا لا اريد تكرار التجربة من جديد ..

أليس خالد الذي أحببت ؟؟ .. والذي تمنيت ؟؟

ومن يومها حرصت على ان ابدو في احسن صورة .. في احسن مظهر .. فأنا ضاحكة .. ضاحكة دائما .. تمـــلأ صيحاتي جوانب المرسم .. انا دائما مرحة مزغـــردة .. او

هكذا اردت ان ابدو ..

انا لم أعد أنام طوال نهاري .. بل اقوم اكثر من مرة .. لاضع الاصباغ على وجهي .. اضعها بكثرة .. واظل الـف وأدور في داره طول اليوم ..

نعم دارك .. فلم أعد أحس انها داري القديمة التـي صنعتها بيدي وجعلت كل ركن فيها يصرخ مناديا : مكانك يـا مها هنا .. مكانك يا مها هنا ..

أتجول في داره متعطرة متزينة .. وبسمة واسعة على شفتي .. ويخرج في اي موعـد فألتصق بالسريـر .. بالدولاب .. بصورة .. بأي شيء .. فلقد كنت خائفة مـن كل شيء ..

اشلاء انا .. والله اشلاء .. ورصيدي من الخسائـر ضخم لدرجة انه أفقدني القدرة على الاستمرار في الحياة ..

وحيدة اتسول في داره ... أتنقل هنا وهناك .. أفكر في هذا العرض الذي عرضه علي يوما ما ..

أفكر في حريتي .. في العودة الى المستشفى .. الـى الاطباء والمرضى .. الى حياتي السابقة .. ليس هذا ما كنت انشده مع خالد .. لا ادري ما حدث تماما .. ولا يهمني ان اعرف .. فأنا لا احاول هذا مطلقا ..

لقد اصبح بيننا شيء مفقود ! ..

وعينا خالد أرى فيهما ذكرى .. نعم ذكرى حلوة .. ذكرى مزغردة .. فأنا انهل من ذكرياتي لاحيا غدي ..

اضحك عاليا لاسمعه .. وابكي وحدي لنفسي .. وبلا دموع .. أحاول عبثا ان امتزج معه .. فأمسك الفرشـاة لانثر البقع .. ويستخرج هو منها تلك الوجوه الدائمة التألم ..

وجوه حائرة .. وجوه ضائعة .. في الزحام .. وجوه تحب الماضي .. وتتمناه .. وجوه تخاف الماضي والمستقبل!.

فخافت حاضرها أيضا ولم تحيه ...

وافكر اكثر لتبرز صورة عمر بوضوح .. واعود لاتكلم كثيرا واضحك بلا مناسبة .... واعيد التفكير في كل شيء..

في خالد .. في حياتنا ..

في عمر ....

في ظلالي .. كأنها ستار أسدل على نهاية اثنين ... ولكني اتجنب التفكير في حريتي .. واكتشفت أنني اصبحت أنا الاخرى ... أنا الاخرى ...

أخاف تكرار حدث معين .. فأبدأ الضحك من جديد ...

« جيلان حمزه »

تم طبع هذا الكتاب على
مطابع دار الكتب – بيروت
في شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٠